رجب سعد السيد

قصص قصيرة



إهـــــداء 2005

المرحوم الدكتور/ محمد زكى العشماوى

الإسكندرية

اركبوا دراجاتكم

قصص قصيرة

رجب سعد السيد

الطبعة العربية الأولى مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٤٥٨٢ / ٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291-147-7



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

رجب سعد السيد

اركبوا درَّاجاتكم



إهداء

يا أبى ...

هل هو أمر شائع أن يطول غياب الآباء ... ؟!

رجب

(١)

* مشهد من الجندية

* محطتان

* بريد حربى

* سمك مشوى

* ظلام

مشهد من الجندية

أكياسنا الثقيلة معلقة بأكتافنا ، ورياح كالرصاص ، لا تأبه بأرديتنا الكاكية الخفيفة . الوجه الجامد ، والشفتان الثقيلتان والنطق المتعثر . قال : نصيحة غالية .. إنسوا مؤهلاتكم الجامعية خارج أسوار هذا المعسكر ، أو اجعلوها فى هيئة لفافة رفيعة وأدخلوها فى مؤخراتكم !

قال أيضاً : إن مهمته أن يصنع منّا رجالا ، وأن من لا يستجيب سيرى كيف يكون العقاب فى سجن المعسكر ، حيث الوحوش فى شكل رجال هوايتهم اللواط !

هو معنا فى خندق واحد ، نلوك المرارة وتشوى أجسادنا عذابات الوطن . إذن ، لماذا يواجهنا بكل هذا العداء ؟

هل يجب أن يبدو هكذا متجهما ككل شئ ترابى ؟

حساسية عدوانية ضد كل ما هو غير مصفوف . أيها الجندى المستجد .. لقد دخلت من هذه البوابة ، وهذا يعنى الشئ الكثير . أنا أريدكم داخل هذه الأوعية الكاكية اللون . مهمتى أن أجعلكم تنسون كل شئ . أنت رقم واسم ثلاثى واستجابة فورية . لا شئ آخر .

- "مقدرة هائلة على التشبه بالجبل .. لونه النحاسى ، ملامحك أخدودية كالحفرات العديدة التى تنتشر كبثرات غائرة ..

- "وأنا وضعتك فى بطنه .. فى خيمة تبتلعها بثرة ....

- "لن أدعك تمتلكنى .. لقد بدأت العداء ..

- "كلنا هنا من أجل الوطن،..

-"أنظروا .. الوطن ! .. أمسك بالورقة التى يظن أنها السيف ! ..

الوطن ! .. من يدرك معنى الوطن ؟ .. لم آت إلى هنا لأتعلم من مسخ معنى الوطن ..

ولا أعتقد أن تعليمى ذلك يستدعى أن تقذف بى إلى مستطيل خشبى على أرض خيمة فى حفرة غائرة محاطة بأهرامات صغيرة سوداء مخرمة من البراز الجاف .

- "خذوه إلى القره قول ..

جرعة سجن إضافية . والمكان لا بأس به من الخارج ، حجرة كبيرة ، تبدو نظيفة ، وحولها حديقة مقسمة . من أين يصدر هذا الاطمئنان إلى

المكان ؟ لابد أنه الشوق إلى حضن الجدران بعد تلك الأيام القليلة من ممارسة العراء على أرصفة محطات السكة الحديد ، وفى قطارات الجنود الليلية البطيئة .

- "انتباه يا جندى !

وجه مختلف ، لكن نفس درجة العداء فى الصوت والملامح .

- "منتبه إليك

- " ماذا ؟ .. هل تدعى البلاهة ؟"

- "أبداً ... حقيقة .. أنا منتبه .. ماذا لديك ؟!

- "يبدو أنك جندى مؤهلات ... نظارتك وشكلك وتعجرفك .. أدخلوه !"

الحارس ذو ضآلة مضحكة ، مضطرب ، يحمل بندقية فارغة والسونكى غير مشرع . وهو المكلف بتنفيذ أمر الحكمدار منتفخ الوجه .

حسن . هذا هو الاقتياد الثانى إلى هذه الجدران . هذه المرة عصيان . والمرة الأولى ؟

ليلتان بملابس النوم فى سجن الحضرة ، بتهمة الاشتراك فى معزوفة احتجاج عام ، فى حلبة تبادل اللطمات . غطينا الجدران بالأوراق . تدفقت فوقها ارتعاشاتنا . انتهى اليوم بؤتمر صاخب وحنجرة مهدمة ، وصداع وساقين خائرتين تحملان الجسم الذى أرهقته الأنيميا . بعد ساعات قليلة

من الاستسلام للنوم ، دهمت البيت الأرجل الغريبة . فزع الجيران وهم يرون نفس العربة التى تطارد لصوص الميناء وتجار المخدرات تحمل الابن الأكبر للأسرة . و .. قرب الفجر ؟ . ونطقوا كلمات السياسة وزوّرا الفجر والمظاهرات وقضية الطيران .

نفس الهواء المتسخ . نفس النوشادر ، وإن كانت أقل كثافة . نفس درجة الإظلام . وتلك العتمة من الداخل ، تطل هذه المرة مع إحساس غريب بالراحة . أجساد ملقاة ، وأصوات تهوّن الأمر على القادم الجديد . هل تعطونى الألفة من أجل سجائرى ؟ .. من أجل أننى جندى المؤهلات العليا المسجون ؟ . هيا نثرثر حول اتهامى بأننى مختل لا أصلح للجندية . قال الرقيب إننى لا أعرف معنى الوطنية ، وإننى عنصر فاسد لا يشعر بالواجب والمسئولية . كل ذلك من خلال كلمات جافة ، ووجه جامد كله عداء ، ويطلب منى - خلال اتهامه لى - أن أقف متصلباً لا أتحرك ، والبرد الجبلى يخترق لحمى . هيا نثرثر عن جناياتكم الصغيرة التى تغتفر إلى جانب جرمى العظيم ..

- "المختص بجلب المياه يخرج !"

قام ، دعانى للخروج معه ، مد يده وسحبنى من يدى . قال إنها فرصة . حملنا أوانى المياه الحديدية وخرجنا .

أمام الصنبور الكبير فى المصنع الحربى المقابل لمركز التدريب ،وقف يلعب بالماء . طفل يرش الماء على وجهه ويعرى ذراعيه وساقيه . تبوّل

واغتسل . جرى هنا وهناك - تحت أعين الحارس المرافق الذى يحمل بندقية خالية من الرصاص - ولعب مع فراشة كانت تحوم فوق وردات برية صفراء ، نبتت فوق سيقان خضراء رفيعة فى بركة المياه المتكونة حول الصنبور الكبير .

أشفقت عليه من حمل الوعاء الحديدى مملوءاً بالماء . أنا أيضاً استحق الإشفاق ، فوعائى ثقيل جداً ، ولا أكاد أتحمله . ولكنى سعدت بمرح الجندى الصغير ، رفيقى السجين .

قال : "سآخذه عنك .. سأحمل واحداً بيدى اليمنى والآخر باليسرى .. هاته .."

أخذه عنى . قال :"أنت ابن ناس ومتعلم .." .

كانت له ابتسامة واضحة متصلة . أشركته فى سجائرى ، وأحببت رحلة جلب المياه معه كل يوم .

وفى آخر ليلة لى فى الحبس ، استيقظت قرب نهاية الليل على أصوات غريبة . كان الجندى الصغير رفيقى السجين ينام قريباً منى على الأرض . وكان يئن . وكان نصف عار . وكان حكمدار السجن الغليظ هناك أيضاً . وكان نصف عار . ولم أكد أطلق صيحة استنكار حتى كانت اليد الباطشة تدك وجهى وتجعلنى أترنح .

محطتان

الأولى : فى زمن الرمال الصفراء والزنبقة البيضاء

موقع تحاصره كثبان الرمال العالية . عند الصباح ، أشعر بالرمال فى أغشية أنفى ، وعالقة بشعيرات رموشى . تناثرت الفرقة . فكان نصيبنا هذا الموقع الجديد

انتهت أيام التوتر الشديد ، ولكننا - وقد تمت لقاءات الخيمة عند الكيلو ١٠١ - لم يكن واضحاً أمامنا ، هل نسترخى أم نستمر فى التوتر؟. هل نصدق - حقاً - أن الحرب قد انتهت ؟

مرت ثلاث سنوات ، ولازلت لا أعرف موعداً لانتهاء تجنيدى لازلت أحمل شرائطى الثلاثة على ذراعى الأيمن ، وأمارس تميزى كواحد من فئة

المجندين الجامعيين (هـ . ع) ، أناقش وأفلسف ، وتجمعنى بضباطى جلسات خاصة ، تسقط فيها أقنعة الرتب العسكرية ، ونثرثر كزملاء دراسة.

تقاسمنا جرعات مريرة قبل أن يفقأ هدير مدافع الظهيرة التحضيرية عين الانتظار السمجة لم يخل أى منّا على نفسه بنصيب وافر من نشوة المشاركة فى الفعل لم يكن اللون الأسود أقل مساحة فى عينىّ قبل أن تتولد فى ضفتنا صرخة الفعل ، ولكنى كنت - معظم الأحيان - أفلح فى تغيير ملامحه إلى ستارة رمادية ، لا تكاد تخفى زنبقة بيضاء مشرئبة ، تحملها ساق دائمة الاهتزاز .

انتهى القتال ، وجئنا إلى هذا الموقع ، وبدأنا نتحدث من جديد . لم يعد لدينا ما نفعله إلا أن نتحدث ونزاول أعمالا تتدنى كثيراً عن أداء المقاتلين .

وكنت ساخطاً - معظم الوقت - ولا أخفى الإفصاح عن رأيى فى أن الزنبقة كانت بين أصابعنا ولكنها - كيف ؟ - اختفت ولم أعد أرى غير متوالية من الستائر الرمادية ، وتلال من الرمال الناعمة ، تتناقلها رياح الصحراء ، وتجعل لها أسطحاً ناعمة مخادعة ، وتتسلل ذراتها إلى جهازى التنفسى .

ولم أكف عن التساؤل : هل أفسدنا الحلم بأيدينا ، مرة أخرى ؟!

يتعاطف معى أحمد أمين طلبة والضبع وسالم وأحمد سعد وإبراهيم عبد الرازق ، أفراد فصيلتى ، من قنا وأسيوط وسوهاج والمنوفية يوقدون النار ويصنعون الشاى نشرب بالمشاركة

يختصوننى بالكوب الزجاجية الوحيدة . يقولون : حدثنا بهذا الحديث الذى يكاد - مثل شعرك - يبكينا .. حدثنا عن مصر التى لا نعرفها ، والتى كنا نظنها تبدأ وتنتهى بميدان باب الحديد وعربات الدرجة الثالثة فى القطارات المتهالكة ، المتجهة من الصحراء إلى قرانا إنك تتحدث عن حبيبة تراها ماثلة أمامك ، وقد أضفتنا إلى قائمة المحبين حدثنا بالمزيد عنها .. ما الذى تخبئه لنا فى قميصها الحريرى ، ونحن نعود إليها وقد وضعنا السلاح جانباً ؟ . هل هى أنثى طيبة ؟ هل هى أم تفيض بالحنان وتوزع رغيف القلب على أبنائها بالعدل ؟ . هل ستتجمل من أجلنا وتكون صادقة فى وعودها ؟ . ليس أحلى ولا أسهل من الحديث إلى أحباء . أتدفق بكل ما أعرفه .وأثناء تدفقى ، أكتشف ما لم أكن أعرفه ، وأحياناً كانوا يأخذون بيدى إلى أراض للسحر وإلى مصبات أنهار من شعر وعسل مصفى .

وفجأة ، يغتال تآلفنا صوت (الرتالة) الحاد المستمر البغيض ارتبط صوتها بالإنذار بالخطر القادم فى أيام القتال . الآن ، تدعونا إلى (طابور) من السأم

التأفف والتثاقل . يتحركون من كل جهات الموقع المتسع يكسوهم استرخاء مقاتل هجر خندقة . وكنت فى مقدمة المقتربين من مكان تجمع الطابور . رأيت قائد السرية متجهماً ، يقف بدون غطاء رأس ، ممسكاً بعصا رفيعة ، وسمعته يصيح غاضباً دامغاً الجنود بانعدام الرجولة .

لم أحـاول إلا انتقـاء أقل الألفاظ إيلامـاً . أنا أحد جنوده الذين قـاتلوا معه ، ويقذفهم - الآن - بالنقائص .. صحت :

- (هؤلاء جنود مـقاتلون ، وليـسـوا أجراء فى أرضك .. قـائد أنت أم ملاحظ أنفار بائس ؟!) .

لن أنسى ملامح وجهه قبل أن يثور ويتراجع هادراً إلى مكتبه ، صائحاً فى مساعد السرية أن يأتى بى إلى المكتب ، مع (أورنيك الذنب) .

اقتادنى المساعد إلى محكمته . أمر المساعد بالانصـراف . بدأ الحديث غاضـباً . نصحنى أحـد ضباطه - إشـارة - أن التزم الصمت . كـان صوته العالى مستـمراً فى توجيه الاتهامات إلىّ ، والتهـديد بأشد العقاب . تدخل الضابط ملتمـساً لى العذر ، فكلنا مرهقون وأعصـابنا متوترة ، وطلب منى أن أعتذر . توقف القائد منتظراً اعتذارى . قلت فى هدوء شديد :

- لم أخطئ لأعتـذر ! .. لم أكن لأسكت حين يقال لنا أشبـاه رجال.. إننى أدافع عن رجـولتى وشرف زملائـى .. بل عن قائدى نفسـه .. إذا كنا نحن أشبــاه رجـال فكيف ارتضـيـت لنفـسك أن تقـودنـا فى الحـرب يا سيدى؟!) .

صرخ قائد السرية منهياً المحاكمة : خذوا هذا الرقيب من أمامى !! .

وعلمت أن الجزاء كان الحبس لمدة عشرة أيام .

ولكن ذلك لم يسـتـمر إلا لسـاعات قـليلة . فقـبل أن ينتـصف الليل ، فـوجئـت بالقائد نـفسـه يدخل إلى (ملجـئى) . بادر بطلب الـشاى . كـان ضيفى، فأسرعت أعد الشاى .

نظرإلى بعض الكتب والأوراق المتناثرة فوق الفـراش . قال : كيف تقرأ في ضوء هذا الفانوس ؟ .

مـــد يده إلى الأوراق ، وقـــال : مـاذا تكـتب ؟ .. هل لى أن أرى ؟ .. لعلك تصيغ منشوراً ضدى ! .

كان يتـحدث وأنا مـأخوذ بمفاجـأة الزيارة ، ويداى مشـغولتـان بالشاى والسكر . نظر فى الأوراق طويلاً . قال : سمعت أنك تكتب الشعر .. يبدو أن هذه قصيدة جديدة .. زنبقة من دم المدثر ! .

قلت : المدثر اللرديرى على .. زميلنا الذى استشهد عند الممر ! .

أربد وجهه ، وغمغم : أعرف .. أعرف .

قرأ القصيدة ، وأخذ يحتسى الشاى صامتاً . سألنى فجأة : هل أزعجك الجزاء ؟.

قلت بعد تردد : ليس كـثيراً .. فحالنا العـام أقرب إلى الحبس الدائم .. لا أحد يغادر السرية !.

فاجأنى ثانية يسأل : هل لك حبيبة ؟ .. لكل شاعر حبيبة !.

ابتسمت فابتسم . قال وهو يترك الكوب جـانباً ويستعد لمغادرة الملجأ : راجع مكتب السرية صباحاً .

وفى الصـباح ، كانت الـورقة المختـومة فى يدى ، وكنـت أغادر أرض الكثبان الرملية ، أفكر فى الأماكن التى سأنشد فيها قصيدتى الجديدة .

الثانية : فى زمن الحرائق

أسميه زمن الحرائق ...

أرفض الإجابة على دهشة من يتساءلون عن ضرورة انبعاث الدخان .أعظم الحرائق لا تنتج دخاناً ! تنفس ، فأنت - إذن - تشعل حريقاً . هل يمكنك أن تكف عن التنفس ؟ .

أنت كائن حى .. أنت مشعل حرائق ... فلماذا يطالبوننى بدليل واه ، كالدخان ؟! . لا تسألونى .. إن حرائق الدخان هى حرائق الإطفائيات . حرائق هذا الزمن - التى أراها - لا تجد ضرورة لغاز الأكسجين . إذا رايتموها فافعلوا كما أفعل . لاحاجة بكم إلى الهاتف لاستقدام عربات الإطفاء . فقط ، قفوا ، وانظروا .. اكتفوا بالمراقبة ، وإن استطعتم ، لا تقتربوا من السعير !.

كان ارتفاع درجة الحرارة يطاق . لم يكن قد وصل إلى درجة الشواء .. برغم الكراهية المتبادلة ، طلبنى . يحتاج إلىّ .

قالت زوجتى : لا بأس .. فرصة .. وأمامنا تكاليف بداية العام الدراسى ..مصروفات المدرسة .. الملابس .. السيارة .. والشتاء داخل ، ولم تعد ملابسنا الثقيلة القديمة تصلح لمواجهة توحش موجات البرد .

فقلت له ، لا بأس . وكنت أضمر أنها فرصة لأرى مساحة من وطنى ، وأمسح اسمى من قائمة الذين لا يعرفون خريطته إلا فى كتاب الجغرافيا .

توارينا ، ولم نعلن هدنة ، ولكنا عشناها . تتبادل الكائنات الدنيا المنفعة. نتعالى نحن عن سلوكها . هى ترقى به وتعيشه فى احترام للحدود. نحن نتوارى ونمارسه .

جمعتنا المائدة وهو على رأسها . يتكلم عن خطة الأعمال الحقلية ، ابتداء من جنوب الغردقة إلى الشمال ، التفافاً حول خليج السويس ، حتى رأس محمد ، الامتداد الجنوبى المدبب من شبه جزيرة سيناء ، وأنا أنصت وأشارك .

حاولت أن أضع مطالب زوجتى جانباً ، وأخلق مبرراً آخر : عمل قومى متميز ! .. ما رأيك ؟.

فى الأعمال التحضيرية ، صغت بعض الخطابات .

السيد ... يجرى حالياً بالمركز الإعداد لبعثة قومية لدراسة أحوال الشواطئ المصرية وتقصى آثار التلوث بالزيت فى منطقة خليج السويس حتى جنوب مدينة الغردقة على ساحل البحر الأحمر . وسيقوم الفريق البحثى بالعمل فى شواطئ المناطق المذكورة ومياهها الساحلية . نرجو التكرم باتخاذ اللازم نحو تسهيل مهمته .

وكان ضرورياً أن أسأل عن التمويل . ابتسم : لا تخف .. ليس كما تظن ! .

وكان يعرف أننى لا أتعامل مع المشروعات العلمية التى تمولها سياسة التطبيع . إن لم تكن إسرائيل الممول ، فمن يكون ؟.

شـركة بتـرول كبـيـرة . حاولت أن أعـرف أكثـر . لم تكن المعلومـات متيسرة ، واكفيت باطمئنانى إلى أننى لا أرفع فوق رأسى علم التطبيع .

نقلة حادة . سنوات العمل الطويلة فى المختبر عودتنى على الاسترخاء. يختلف الحـال فى الميدان .. فى عربات مـتهالكة .. تحت شـمس ساخنة .. حد أدنى مـن متطلبـات المعيشـة ، نتيـجة لقـصور واضح فى التـجهـيزات الإدارية .. ومـسـاحـات عريضـة من الشواطئ لا تزال تـتـفجـر فيـها ألغـام الحروب الماضية من حين لحين ، فيصبح ارتيادها جنوناً .

مـعى آلة التـصوير وقلـمى وأوراقى وأكيـاس النايلون لحـفظ النمـاذج والعينات . على رأسى قبعة قطنية مبللة بالعـرق وأبخرة ملحية . يبتعد خط الماء خلف مرتفـعات جبلية أو مسـاحات شاسعـة من الرمال المستعـصية ، فنفقده ، ثم يعود فيقترب لنلتقى به .

حماسى واضح لى أنا قبل أن يرصده رفاق الرحلة . كان البحر الأحمر عالماً مجهولاً لى قبل الآن ، فقد اقتصرت خبرتى على الساحل الشمالى ... وها أنا أبدأ جولتى معه فتتآكل جدران قلبى حسرة وأسى .

فى أول جلسة لمناقشة أحوال العمل والتقارير عن عـمليات المسح للأيام الأولى ، كان رده على ما قدمته أن ألتـزم الحياد ، ولا شأن لنا بما هو موجود . كان مطلوبـاً منى ألا أقول شيـئاً عن فـوضى التداخل العمـرانى فى قلب البيـئة البـحرية ، والأنقاض التى يأتون بـها لدفن مسـاحات هائلة من بيـئة الشعاب المرجانية الضحلة ، لترتفع فوقها مبان لقرى سياحية وقصور .

قلت : إنهم يتصورون البحر أنبوبة مجارى ! ... إنهم لا يعاملونه ككائن حي .

وقلت : الزيت والقمامة وكرات القطران فى كل مكان .. فماذا تريد الشركة الأخطبوطية أن تفعل بهذا البحر أكثر مما به ؟! .. كتل أسمنتيه تقوم على أشلاء بحر تتراجع فيه الحياة .. تباع شواطئه لتنقض عليها المعاول ، وترتفع أبنية تطل على مياه كابية ، لا يدرون أنها تموت ببطء ، وسيأتي يوم يفتحون فيه نوافذهم فتهب عليهم رياح القبور بدلاً من نسيم البحر .

ثرت وقلت إننى لن أكون مشاركاً بالسكوت .

قال إن مهمتنا علمية ، وإنه ليس علىّ إلا أن أعطيه تقريرى ، فتنتهى مهمتى ، وأحصل على أجرى .

وكنت أعرف أن ما يقوله هو الحقيقة التى قبلتها منذ البداية ، فتعاظمت درجة الحرارة وبدأ الاحتراق .

لملمت أوراقى وغادرت المكان إلى استراحتي المليئة بالذباب . تبعنى شريكى فى الاستراحة . وجدنى أرتب حقيبتى . ولم يجد مشقة فى تهدئتى.

وقبل أن تظهر شمس الصباح ، كنت - كالعادة - أحمل أوراقى وأقفز إلى العربة العجوز . كنت حريصاً على قبعتى التى تحمى رأسى من وهج الشمس . وكنت أخوض فى المياه الضحلة لمسافات طويلة ، ولكن ذلك لم

يكن له أثره المبرد الكافي . فالمياه ساخنة .. بل إنها تحترق . والرمال الملطخة بـقع الزيت وكـريات القطران لا تكف عـن الاحـتـراق . وكـان السـرطان الراهب يجرى إلى المياه آمـلاً فى إطفاء نيران تهلب صدفته ، ونجـوم البحر ذات الأذرع السوداء الهـشة الطويلة تتلوى مـختنقـة . وكنت أنا أحاول أن أنزع قدمىّ من بـركة وحل زيتى ، وأدوّن ملاحظاتـى التى سأعتـمد عليـها آخر النهار فى إعداد تقرير علمى محايد .

بريد حربى

حتى هذه اللحظة ، لا أجدنى واثقاً من أننى سأكتب الخطاب . أعرف تماماً ما أريد أن أقوله ، ولكن داوفع غير محددة الملامح تجعلنى أتردد . طلبت رقم البريد الحربى من زوجته ، فرحبت وأعطته لى فى ورقة صغيرة. أردفت قائلة : أرجوك ، لا تعطه لانتصار إذا طلبته منك .. لا أريد أن تتصل بأبيها إلاّ عن طريقى !.

اعتبرت ذلك داخلاً فى دائرة شئون بيتها ، فلم أتوقف أمامه كثيراً . ظلت الورقة تحت زجاج سطح مكتبى عدة أيام ، تطالعنى فى كل مساء حين أجلس للقراءة أو الكتابة ، وتتسبب فى تعطيلى عن أعمالى لبعض الوقت ، حتى أحسم التردد بتأجيل التفكير فى الموضوع .

قبل ظهر اليوم ، اتصلت بى زوجته هاتفياً ، وأبلغتنى بأنه يسأل عنى ..

فهو يتصل بها من شرق السعودية بانتظام . قالت له إنها أعطتنى رقم البريد الحربى منذ مدة طويلة . قال لها إن البريد منتظم ، ولم يصله منى أى خطاب . اضطررت إلى أن أسوق بعض المبررات ، مع اعتذارى عن التأخر فى الكتابة إليه .

فى نشرة أخبار المساء المصورة ، كانت الدبابات بالأرقام العربية تجرى فى بحر الرمال . لم أستطع القطع بأنها دبابات لوائه . رأيت أيضاً وجوهاً مختلفة لجنود يعزفون الموسيقى ويغنون ويرقصون أمام شجرة عيد الميلاد ، فى خيمة تختلف تماماً عن خيام الجنود الفقيرة الكئيبة التى عرفتها بعض الوقت قرب قناة السويس . ولم يستوقفنى بين أخبار الصراع غير خبر صغير فى صفحة داخلية من صحيفة هذا الصباح ، عن اهتمام مراكز البحوث فى مصانع الحلوى الأمريكية بانتاج أنواع جديدة من الشيكولاته لا تتأثر بحرارة الصحراء ! .

أخرجت الورقة من تحت زجاج المكتب . فكرت فى أن أنقل محتوياتها إلى قائمة عناوين الأصدقاء المغتربين . وبعد أن فعلت ، عدت وفكرت فى أن ذلك لم يكن ضرورياً ، فالقائمة مخصصة للعناوين الدائمة وشبه الدائمة ، ولا أعتقد أن الأمر سيطول . ولكنى لم أحاول شطب العنوان من القائمة .. قلت فى نفسى من يدرى ! .

جاءت زوجتى بالشاى ، وقالت :

- (ربنا يهديك .. أكتب للرجل .. لا تدعه يظن أن أعز أصدقائه يتخلى عنه فى وقت الشدة !) .

وسحبت مظروفاً ، وضعتـه أمامى ، وعادت تستحلفنى أن أكتب ، لأن الصداقة شئ ، والأفكار التى (تملأ مخى) شئ آخر .

تعجبت لـتدخلها بهذه الصورة غـير المسبوقـة ، ولكنى لم أصدها ، بل ابتسمت ، وأمسكت بالقلم ، وكتبت على صفحـة الغلاف : بريد حربى ، فى الركن الأعلـى إلى اليـمين ،وفى الوسط تمامـاً ، رقـم الوحـدة ، ورقـم المجمـوعة . وآثرت آن أكتب اسم صديقى كـاملاً مسـبوقاً - فقط - برتبـته العـسكرية المركّـبة ، ورأيـت أنه قد لا يكون مـن المناسب أن أسبـق اسمـه ورتبته بكلمات مثل الأخ العزيز أو صديقى الحبيب .

بقيت زوجـتى معى فى الغرفة تشـرب الشاى . جلسـت فى مقـعد أمام المكتب . كانت رغبتها فى الثرثرة واضحة . قالت :

- (نبيل اعتمر فى الأسبوع الماضى) .

أخبرتها صـفية - زوجة نبيل - بأنهما كـانا ينويان الحج معاً .. وها هو قد جـاءته الفرصة لـيعتـمر وحده . طيـبت خاطرها ، وقـالت لها إن الأيام قادمة ، وسيكتبها الله لكما مادمتـما نويتما الحج . قالت إن صفية أصبحت أكثـر ثباتاً ، بعـد أن كانت لا تكف عن البكاء فى الأيام الأولى بعـد رحيل نبيل إلى السـعودية . وحـشدت زوجتى كل قـدرتها على المناورة لتـتلافى غضبى المتوقع ، وهى تمرر إلىّ إشارة إلى بداية اهتمام صفية بسعر الدولار فى السوق السوداء .

استقبلت الإشارة ، ولم أعلق ، فشجعها ذلك على الاسترسال

- قالت :

- (عندما أخـذوا أخي إلى اليمن كادت أمـي تموت من الحزن .. ولكنه رجع واشترى نصف بيت !)

خرجت عن صمتي ، وقلت : (غيره رجع فى صندوق !) .

ارتفعت ذراعها محتجة ، وقالت :

- يا شيخ .. الأعمار بيد الله !!) .

احتد صوتى :

- (ولكنك تنسين شيئاً جـوهرياً .. وهو أننا نتحدث عن جنود ! .. هل تفهيمن معنى كلمة جندى ؟!)

وكعادتهـا ، تراجعت إلى الصمت أمام عنف لهجـتى . ولم أكن أقصد الاستمرار فى محاورتها ، بل لعلى كنت أحادث نفسى :

- (وجاءت ٦٧ .. وكان ما كان !) .

جاءت (انتصار) إلى الدنيا فى نهـاية ٧٣ . اختارت لها أمها الاسم لأن أباها كـان مـرابطاً عند قناة السـويس . كنا فى ديسـمبـر ، وقد أصـبـحت الأوضاع فى حالة من الاسـتقرار تسمح بالتصـريح له بترك كتيبتـه والسفر إلى الاسكندرية لاستقبال انتصار .

وكنت أعـرف أن انتصـار تعـيش فى حـزن دائم منذ رحيـل أبيهـا إلى السعودية . ولست أدرى كيف يدبر أموره هناك ، ولـكنه يكلمها هاتفياً كل

يوم تقريباً . وبرغم ذلك ، فهى لا تكاد تبارح حجرتها فى البيت إلاّ فى الصباح ، حين تخرج إلى المدرسة . أوصانى نبيل ، ونحن نودعه ، بأن أرعى انتصار فى غيابه ، وكان قلقاً لأن الأحداث المتلاحقة واكبت استعداد ابنته الوحيدة لامتحان الثانوية العامة .

وكانت انتصار منهارة تماماً فى آخر لقاء بأبيها قبل سفره . طمأنته ، آملاً أن يخف الحزن مع الأيام ، ولكن البنت تذبل ، ولا تلتفت لدروسها ، وأنا حائر ، بل عاجز عن مساعدتها . تنتابها ، من وقت لآخر ، نوبات عصبية ، تصرخ ، وتحطم ما تجده أمامها ، وتصيح منادية أباها باسمه ، طالبة منه أن يعود إليها .

استدعتنى أمها منذ يومين ، فهرعت إليها . نجحت فى وقف هياج البنت . تعلّقت برقبتى تستحلفنى بالله وبصداقتى لأبيها أن أكتب إليه ليعود .وكنا نحدثها بما تعرفه هى .. باستحالة أن يعود الأب ، فهو رجل عسكرى محكوم بقوانين ونظم عسكرية . وكانت تصرخ :

- (أعرف .. أعرف .. وأنا أعرف أبى أكثر منكم .. إنه أشد الناس انضباطاً .. وهو يحب عمله ، وكنا نتركه له معظم الوقت .. ولكنى أريده.. لا أحبه أن يدخل هذا الجحيم .. أبى مقاتل .. أعرف تاريخ أدائه العظيم .. أعتنى بأوسمته ونياشينه ، وأشترى له علامات الرتبة المذهّبة عند كل ترقية .. أبى مقاتل .. أتعرفون معنى هذه الكلمة ؟! .. فكيف تريدوننى أن أتركه فى هذا السعار ؟!) .

وكنا في حجرتها نحيط بها . هدأت ، وطلبت منى أن أبقى بمفردى معها . انسحبت أمها وزوجتى .كفّت عن البكاء ، وحاولت تجفيف الدموع التى ملأت صفحة وجهها . وكانت مستمرة فى طور الهدوء ، وتنادينى بيا (عمو) وتقول :

- (حاولت أن أحسب حجم النيران التى يمكن أن تنتج عن كل ما تم حشده ، وتخزينه من مواد مدمرة فى ذلك الشريط الضئيل من الرمال .. طبعاً عجزت .. ولكنى أشهد الموقعة فى كل ليلة .. كابوس بعد كابوس .. كرة نيران ضخمة تتدحرج فوق رمال الصحراء ، ودبابة أبى تعلق بطرف لسان أحمر فى بؤرتها .. عينا أبى تنظران إلىّ فى فزع ، والقناع الواقى من الغازات يغطى وجهه .. يمد لى يديه لأنتشله من بحر رمال متحركة يمسك به ، وأنا عاجزة أصرخ ولا نصير ..) .

وقامت متجهة إلى رف للكتب فى ركن من حجرتها . سحبت ثلاثة كتب ، وعادت لتضعها أمامى . واصلت تتحدث فى خوف واضح :

- (أنظر .. قرأت كل هذه .. خذها واقرأها ، وحاول أن تنام بعد أن تتضح لك أهوال الحياة تحت سحابة غاز حربى ..) .

توقفت قليلاً ، وعادت للبكاء ، ولكن فى هدوء ، وتقول ، وكأنها لا تريد أن تنطق الكلمات :

- (هل تريدنى أن أترك أبى يباد مختنقاً فى صحراء بعيدة ؟!) وصمتت طويلاً ، مغمضة عينيها ، حتى خلتها تريدنى أن أتركها . فلما سألتها فى ذلك ، سارعت تقول :

- (لا .. من فضلك .. إبق معى .. سأقول لك شيئاً آخر يحزننى .. حاولت أمى مواساتى ، وقالت إن سفر أبى ليس كله شراً .. بل قد يكون فيه خير ! .. سنجد نقوداً أكثر .. وستكون هناك فرصة لتشترى لى شقة أتزوج فيها، وجهازاً صرخت فيها لتكف عن أفكارها المشينة هذه !) .

حاولت أن أدافع عن الأم ، فقاطعت انتصار :

- (لا تظلميها .. كانت نعم الرفيق لأبيك .. وعاشت أياماً طويلة مشحونة بالقلق ، وتحملت كثيراً .. هى الآن تفكر بشكل واقعى .. مادامت الفلوس موجودة .. وهى تحبك .. لا تطلب شيئاً لنفسها .. كل تفكيرها يدور حولك وحول مستقبلك ..منطق معقول ..) .

ضحكت ضحكة صغيرة ، وقالت فى أسى واضح :

- (يا عمو .. لا تحاول المجاملة على حساب الحقائق .. أين العقل الذى تتحدث عنه ؟ .. علمونا فى المدرسة أن المنطق نظام .. وأنت تدرك كمّ الفوضى فى العالم .. اختلطت الأوراق .. تبدلت الأحوال .. عدو الأمس صديق اليوم .) . وسكتت تتنفس بعمق ، ثم عادت تحدثنى وهى تنظر فى عينىّ:

- (هى مسكينة .. تحملت كما تقول ..وهى لا تملك شيئاً .. كلنا لا نملك ما ندفع به ما لا نرضاه .. يخرج إلينا الناس شمعيون ، تغمرهم الأضواء .. يبتسمون دائماً .. يتحدثون ويهزون رؤوسهم .. يؤكدون.. نوافق .. ينفون .. نوافق ..وفى كل الأحوال ، نبدوا سعداء ، ونبدوا

مقتنعين .. ولكنهم ليسوا دائمـاً على صواب .. أحياناً ، لا يرون بعيوننا .. هل ترى ما أرى يا عمو ؟!) .

انتهى حـديثهـا بالسؤال ، وكـان عليّ أن أخرج من إطراقـتى وأجيب . ولكن يجب ألاّ أخـفى أننى كـنت أستـمع إلـيهـا من خـلال دهشـة فـرح بأفكارها الواضـحة المرتبـة ، وبقدرتهـا على الإفصـاح عن هذه الأفكار فى سهولة محببة .

وكأنما أدركت حيرتى ، فكفتنى مشقة البحث عن كلمات ، وقامت مرة أخـرى ، ولكن إلى مكتبـهـا الصغـير الأنيـق . فتـحت درجاً ، وأخـرجت حافظة أوراق ملونة متضخمة . وضعـتها أمامى ، وعادت تقول فى حماسة واضحة ، وقد زال انطفاء الحزن فى عينيها وحل محله توقد مدهش :

- (أوراق أبى .. مـذكرات خـاصة .. خواطـر .. يوميـات ٧٣ .. فيـها أيضاً كلام جميل عنك .. عـقدنا اتفاقاً أن أساعده فى ترتيبهـا وتبويبها بعد أن يترك الجيش ، ليصدرها فى كتاب ..وتركها أمانة لدىّ ، فى ليلة سفره.. وأوصانى أن تحل محله فى إعداد الكتاب ..إذا لم يعد !!) .

وغالبت دموعها فى محاولة للتماسك ، واستمرت تتحدث :

- (قرأت جزءاً منها معه .. يقول أبى ، فى وضوح تام ، إن العدو الأول لنا هو إسرائيل .. يرى أن يكون ذلك واضحـاً تماماً فى أذهان العسكريين ، بالرغم من محـاولات السيـاسيين وتوجهـاتهم .. يرى أن ندع السيـاسيين يفعلون ما يشاءون ..ولكن هذه الرؤية يجب أن تظل عقيدة كل العسكريين

لكى لا يأتى وقت يرتعش السلاح فى أيدينا . يرى أن ذلك يجب أن يظل جمرة متوهجة ، لأن قوى شريرة تتربص بنا ، ولن تترك فرصة لخنق التوهج وإجهاض قدرتنا على الفعل .)

توقفت تلتقط أنفاسها . ولتدعنى أنا أيضاً أتوقف قليلاً عن اللهاث وراء تدفقها وكنت أنظر إليها وكأننى أرى أباها . فى زمن غير بعيد ، حين كان الحماس يكاد يقفز من عينيه وهو يتحدث عن قضية يريد أن ينتصر لها أفصحت لها عن هذه الأفكار . فضحكت فى صفاء ، وأضحكتنى كثيراً وهى تتفكه

- (إن أبى يشبهنى كثيراً !!) .

وقبل أن أخرج من حجرتها ، كانت آخر كلماتها لى تقول

- (سهل جداً أن تقرأ فى الأوراق مدى إقبال أبى على القتال منذ حرب الاستنزاف حتى ٧٣ يتحدث أبى عن معنى كلمة الشهادة كسلوك اعتيادى لجندى كأنها لا تعنى الموت ، بل كأنها مهمة يحمل أمانة أدائها. أين هذا من القلق فى عينيه والتشويش الذى أحسست به فى داخله منذ أن أخبرنا باحتمال السفر ؟!)

وكانت سعادة صفية بالغة ، وهى تودعنا عند الباب تحتضن انتصار وقد عادت صفحة رقراقة .

سألتنى زوجتى قبل أن نصل إلى مسكننا

- (ماذا فعلت بالبنت ؟!)

تجاهلت المزاح فى تساؤلها ، وأجبت :

- (إنها بنت أبيها ، حقاً !) .

... فماذا أكتب لصديق عمرى فى خطاب يحمله إليه كيس البريد الحربى ؟

وماذا يجدى أن أكتب له أفكاراً يكابدها هو نفسه ، وربما بدرجة أكثر حدة منَّا ؟

ولكى أريح زوجتى ، اشتريت بطاقة بريدية مصورةً .. اخترتها تحمل صورة ملونة لأحمس فى عربته الحربية ، يدوس الغزاة . وفى السطور القليلة المخصصة للكتابة على ظهرها ، جرى قلمى بكلمات قليلة :

عزيزى نبيل .. عد إلينا سالماً ،،،

سمك مشوى

تأخرت قليلاً عن موعد الانصراف ، وكان يجب أن أغادر المكتب ميكراً، فقائمة الاحتياجات طويلة . وأنا بطبيعتى لا أحب العجلة ، ولكنى - إزاء التأخير الذى حدث - وجدت خطواتى تتسارع تحت الشمس التى لا تزال لاسعة . وكنت أفكر فى كل الأشياء معاً ، غير أن أشد ما أزعجنى أن تصل عربة المدرسة ، ولا يجدنى ابناى فى البيت ، وهما لا يحتفظان بمفتاح للباب ، وأمهما تزور الطبيب اليوم .

استرحت كثيراً حين وجدت متجر الأسماك لم يغلق بعد ، فوجبة من السمك هى الحل .. سريعة ، وتصل إلى المائدة جاهزة . لكن المزعج أن شواية المتجر لم تعد تعمل ، وتبعد أقرب شواية مسيرة عشر دقائق . وكان علىّ أن أبدأ بشراء الأسماك أولا قبل أن تنفد ويزداد تعقد الأمور .

كنت أظن أن الفوز بكيس الأسماك سيجعل الطمأنينة تسكن قلبي ، غير أنني ، وأنا أغادر المتجرذا الروائح النفاذة ، عجزت عن التخلص من القلق ، بل عاد التوتر يداهمني بعد أن حسبته زايلني وقد انتهت المناقشة وتركت المكتب ، فاضطربت بنود الخطة أمام عيني وأنا أراجعها .. ولكن البداية يجب أن تكون الاتجاه إلى شوايه أخرى بعد أن خذلتني شواية المتجر. خذلني شريكاً أيضاً .. نسى كل شئ .. العلاقات الأسرية ، والزمالة في الجامعة والجيش ، ثم المكتب المشترك ..وأنا الذى كنت أرى علاقتنا فريدة في زمن يلهث فيه الجميع . على أى حال ، يجب أن أعاود تنظيم خط سيرى لأصل قبل عربة المدرسة . والأفضل ، أن أستغل الدقائق العشر ، وأشترى بعض الطلبات في طريقى إلى الشواية .. لأتخلص أولاً من مهمة شراء الخبز ، فأميل إلى المخبز القريب . سيجعلنى ذلك أترك الشارع إلى زقاق ضيق ينتهى بالمخبز . لن يتغير اتجاهى ، وإن كنت سأضطر إلى الخوض في أكوام القمامة على جانبي الزقاق .. لا يهم ... المهم أن أنتهى من الخبز ، ثم أسرع إلى الشواية .. وأثناء الشئ ، يمكننى أن أشترى بقية القائمة ، وسيكون من السهل شراء الخضروات والفاكهة من السوق المحيطة بموقع الشواية . وهكذا ، لا يتبقى سوى المنظفات ، وهذه - اقتصاداً للوقت والجهد - اشتريها من المتجر أسفل البيت .

كيف تترك كل هذه الأكوام حتى تتصاعد منها رائحة النتن ... تطل عليها نوافذ مفتوحة .. ألا يشمون ؟ ويفتح باب مدرسة في نفس الزقاق .. يدخل الأطفال ويخرجون فوق النفايات والأوساخ .. الزقاق خال الآن ،

وعليَّ أن أقطعه ، وصولاً إلى المخبز ، بسرعة ، فليس بيدى ما أفعله من أجل نظافته ، ويكفينى المنغصات التى بدأت تحلُّ فى سماء علاقتى العملية برشدى ، الذى يتهمنى بالتخاذل والخوف والتسبب فى وقف حال المكتب نتيجة تقديراتى السيئة للأمور .. حسناً يا رشدى .. أنا أسميه الحرص والتأنى فى دراسة العمليات .. فهل يكون المقابل أن تستأثر لنفسك بالصفقات مستغلاً اسم المكتب ؟

- بكرة ٦ أكتوبر ...

جعلنى الصوت انتبه .. هل هى مشاركة فى حوارى الداخلى ؟ . ولم يكن فى نيتى أن أتوقف فى هذا الوقت الضيق من منتصف النهار . كنت أخطو أمام باب المدرسة تماماً . كان مفتوحاً ، ولا يزيد طوله عن أربع خطوات من خطواتى السريعة .. سمعت الصوت بعد الخطوة الأولى ، ثم قطعت الثانية وأنا أفكر فى أننى لا يمكن أن أكون طرفاً فى أى حوار بهذا الزقاق القذر .. ولم أخط الثالثة ، فقد التفتُّ إلى مصدر الصوت ، فوجدتها تبتسم ، وتكرر الكلمات القليلة فى ثقة وهدوء ، وكأنها كائن من كوكب للفرح ، جاء ليقول لى تلك الكلمات . احتوتها عيناى ، وهى تقف بالباب ، والماء الأسود ذو الرائحة الكريهة يجرى بينى وبينها .. شعرها قصير كأنها ولد ، ولكنها بنت .. لا شئ يبدو واضحاً فى وجهها ، فكل الملامح دقيقة ومشبَّعة بالابتسام والسكينة .

توقفت تماماً ، واستدرت لأواجهها . قالتها مرة ثالثة . وهنا ، فقط ،

أدركت حقاً أن الغد هو السادس من أكتوبر . وكانت لاتحرك يديها أو رأسها ، ولا يهتز جسمها .. واقفة تبتسم ، ولا تمل من الدق على ذاكرتى المنهكة التى ضاع يوم السادس من أكتوبر فى أركانها المظلمة .

تخطيت جدول الماء الآسن ،واقتربت منها ، فلم تبتعد أو تجفل كما يفعل الصغار عند اقتراب الغرباء كانت ثابتة مستقرة تعطى ابتسامتها الناصعة . الغيت ، وأنا أخطو إليها ، فكرة أن أسألها ماذا تعرف عن ٦ أكتوبر .. اكتفيت بما تأكد فى داخلى من أنها جاءت من بعيد لتثير الاضطراب فى عواطفى التى ذابت فى مفردات الاستيراد والتصدير والتخليص الجمركى . حتى اسمها ، لم أجدنى بحاجة لأن أعرفه . فقط ، تمنيت أن يكون جميلاً كوجهها الذى هبط علىّ فى ذلك الزقاق .

وحين اقتربت منها أكثر ،وانحنيت إليها ، خفت أن ألمسها وأربت على كتفها .. كانت هشة حتى ليبدو أن مجرد وقوفها على قدميها مقدرة غير عادية . كان الزى المدرسى نظيفاً ، يخرج منه أرفع ساقين رأيتهما لطفل .

قلت لها : كل سنة وأنت طيبة ، فاهتزت رموش عينيها واتسع إشعاع ابتسامة الوجه . لم أستطع أن استخلص مزيداً من صدحات عواطفى ، وتمنيت أن تلحظ هى أن وجهى يبتسم مثل وجهها ، وأن قناع الجمود اللصيق به يتشقق ويتساقط بن أكوام القمامة فى الزقاق ، أمام باب المدرسة.

تمنيت أن تطول لحظات علاقتنا فى ذلك الموقع المنفر ، ولم أكن أدرى

أنني أنهى كل شئ حين أخرجت الجنيه من جيبى ، وعرضته عليها ، وبى تحسُّب من أن يربدَّ وجهها ، وتفر من وجهى درءاً للإهانة .. ولكنها أطلقت كفها الضئيلة لتخطف الورقة من بين إصبعىّ ، وتتساءل فى ذهول: جنيه كامل ؟ .

كنت أريد أن أجيب : إنه لك ، ولكنها لم تأبه لإجابة منى .. قالت فى تلهُّف : سأشترى ساندويتش فول .. وكيلو جوافة ... !

ثم ، بنفس اللهفة : لا ... لا .. أقول لك ... سأعطيه لأمى لتشترى لنا سمكاً .. نحن لا نأكل السمك ..

وفى خلال ذلك كله ، تبدلت الرقة فيها ، واتضحت علامات سوء التغذية فى وجهها وجلدها المنطفئ ، ثم خلَّفتنى واقفاً بباب المدرسة ، ولا أدرى كيف اختفت فى الزقاق ...

وحين اجتمعنا حول السمك المشوى ، كنا نأكل - كعادتنا - فى صمت.. رفعت رأسى إليهم وقلت : غداً ٦ أكتوبر ...

قالت زوجتى التى لم تكن تأكل بسبب ضرسها المخلوع :

- "فعلاً .. كلُّ سنة وأنت طيب .."

وتوقعت من ابنىَّ مجاملة مماثلة ، ولكنهما كانا منهمكين فى تقشير الأسماك والتهامها .. وجهت إليهما سؤالى : هل كنتما تتذكران المناسبة ؟

قال الأكبر مؤكداً : طبعاً يا أبى ... إنه يوم عطلة !

وبعـد قليل ، قـال الأصـغـر : وككل سنة ... سـتـحكى لنا فى المسـاء قصتك فى الحرب ...

أصـدر الكبيـر صيـحة احـتجـاج ، وقال بصـوته الآخذ فى الاصطبـاغ بالخـشونة : أنا لا أريد أن أسـمع قـصصـاً .. سـمعـتهـا بما فـيه الكفـاية .. سأجلس أمام التليفزيون ..

وبالرغم من أننى أغـفر له الكثيـر من عنفه ، وهو يتـحول من طفل إلى شاب ، إلا أننى قـاومت رغبة شـديدة فى صفعـه .. ثم إننى لم أكن لأقوى على صفـعه ، فقـد تعاظم إحـسـاسى بالاجهـاد ، وكنت أقوم من مقـعدى مغادراً المائدة محاذراً أن يلحظوا تجمع الدموع فى عينى .

ظلام

لحظة أن صفق البـاب ، داهمنى ظلام يهسُ متـخـابثاً ، يوهم بانتظار طويل للضوء من جديد .وكـان عقلى - برغم كل شئ - لا يزال يومض ، يؤانسنى ، ويفاجئنى أن بإمكانه أن يتساءل عن مدى صحة قوانين الـطبيعة التى تعطى للأشيـاء استقـرارها . وكان - أيضاً - لا يزال قـادراً على ضبط إيقـاع الزمن ليـرى - فى الجبُ - أن تلك الدقـائق ، بالضـبط ، هى بداية حـصة الكيـميـاء فى ثانيـة خامس ... وكـان يجب أن أدخل الآن من باب حجرة الـدراسة لأبدأ فى ترويض الأولاد قبل أن أتمكن من التحـدث إليهم عن مستويات الطاقة الالكترونية فى الذرة ...

وقبل نصف سـاعة ، تقريبـاً ، كان المفروض أننـى أقضى بعض الوقت متـجولاً - كمـواطن عربى حـر ، يعيش على أرض لكل العـرب ، تلونها شعـارات الثورة - فى سوق للمـلابس ، أبحث عن غطاء للرأس لطفلى ، طلبته أمه أحمر ...

ومنذ ساعة ، لا أكثر ، كنت أغادر باب مسكنى ، بعد معابثات ، طالت، مع طفلى وأمه . شددت عليها بتعليماتى ، ألا تفتح الباب مهما كان الطارق .

سرت فى طريق كل يوم .. ربع ساعة إلى المدرسة .

ابتسمت كثيراً فى الطريق - لا يحدث ذلك كثيراً - وأطلقت حمائم نشوة ونزق ... صاحبتنى تفاصيل ليلة الأمس ، وتغلبت ضحكتى على تحيرى فى كيفية إبلاغ أحمد إبراهيم بخبر انهيار السرير الذى صنعه لنا من مخلفات الحديد والأخشاب . وتخيلته يطلق قهقهاته العالية ، ويسمعنى ، نكته أو اثنتين ، ثم يعود لقهقهاته دون أن يسأل عن سبب تفكك وصلات السرير ، قبل أن يأتى بأدواته لينهمك فى تربيط كومة الحديد .

وعند نقطة بعينها فى الطريق - يحدث ذلك كل يوم - أبدأ فى إطلاق صفارات تخلط ألحاناً عديدة لعبد الحليم ...

معظم الطريق خال ، وبلا ملامح .. فى ذلك المكان - حيث أبدأ أصفر- يبدأ جدار طويل عال ، يوازيه ، للداخل ، صف من الأشجار متكاثفة الأغصان ، مليئة بأعشاش العصافير . لم أكن أرى العصافير ، ولكن أصواتها كانت تأتينى عالية ، ولم تكن أصوات غناء .. كانت متصلة وحادة جداً ، وليس هكذا تغنى العصافير ...

لجأت إلى رصيف ضيق يجرى مع الجدار الكئيب . لم أنظر إلى الخلف، ولكنى اكتفيت بإفساح الطريق - وهو متسع وخال - للسائق

الذى كان يطلق نفيراً مستمراً ، ومنتهى أملى ألا أفسد صباحاً حلواً يندر أن تبدأ به الأيام ...

حاذتنى السيارة . كان بها راكبان . إلى جوار القائد ، واحد من طلبة المدرسة أعرفه . لم يتحدث الطالب ، ولكن قائد السيارة كان يتلفظ فى تجهم واضح ، وتبينت فى اللهجة ، التى كانت لا تزال مستعصية علىّ ، بعض الشتائم . تباطأت ، فتباطأت السيارة . قال :

- "أنزل عن الرصيف لأطيح بك إلى جهنم !"

وكنت ، منذ اللحظة الأولى ، أدرك سبب العداء . وهما يستفزاننى ، وقد انفردا بى فى طريق طويل مهجور أسرعت الخطى ، ثم بدأت أعدو فوق الرصيف غير المستوى .

تابعنى صياحهما :

- "مدرس جبان .. خائن كالسادات !

وكنت خائفاً ، فهما اثنان فى سيارة ، وأنا فى العراء وحدى . ولعلنى كنت أدرك أنهما ليسا أقل خوفاً منى .. فلو كانا على درجة من الشجاعة لتمكنا منى بسهولة ، ولكنهما يلجآن إلى عربتهما مكتفين بالصياح والإهانات .

وكان شارع السوق أول شارع يأتى متفرعاً من الطريق ، فأسرعت أدخله ، آملاً أن أتخلص من المطاردة ، ولكنى رأيت السيارة تتهادى إلى جانبى .

وصلت إلى باب السوق ، فاجتزته ، حاسباً أننى أفلتُ من عبء ثقيل وتوتر ، مقسماً الأ أدع هذا السلوك الإجرامى يمر بلا حساب . وبدأت أبحث عن الطاقية الحمراء بسرعة ، لأجد بعض الوقت أقابل فيه مدير المدرسة ، وأنقل له أحداث هذا الصباح ، قبل أن يدق الجرس وأدخل إلى ثانية خامس .

كنت أمر بين أرفف المعروضات مفتقداً التركيز وحماس بداية الصباح، وقد اختلطت أمامى كل أنواع الملبوسات وكل الألوان . وكنت أشعر ببعض الحزن لأننى لن أعود إلى زوجتى بغطاء الرأس الأحمر ، فقد صرت مشوشاً ، حتى أننى فكرت فى الرجوع إلى البيت والاعتذار لمدير المدرسة لانقطاعى عن العمل اليوم ، وفكرت فى نفس الوقت - فى ضرورة التوجه إلى المدرسة لمقابلة المدير ، وللتخلص من شحنة التوتر فى الثرثرة مع المدرسين حول الواقعة ... ثم إن درس اليوم هام جداً ، وقد أمضيت وقتاً طويلاً فى إعداده لأقدمه إلى عشرات من الوحوش الصغيرة ، آخر ما يشغل بالها فى هذا العالم هو نظام توزيع طاقة الالكترونات فى الذرة ...

وفى محاولة أخيرة لانجاز مهمة الحصول على غطاء رأس أحمر ، سألت إحدى البائعات ، فهزت رأسها نفياً ، فاستدرت ، وقد انتهت جولتى فى سوق الملابس خارجاً إلى المدرسة .

رأيتهما على بعد أمتار منى ، يحادثان مسئولاً بالسوق . اقترب الثلاثة..

طالب السنة الثالثة قصير القامة ، ومرافقه قائد السيارة الذى سبنى كثيراً ، وكان له وجه لحيم وبشرة بيضاء مليئة بالحفر ، يتقدمها الرجل الذى يبدو أنه مدير السوق ، قال :

- "ماذا تفعل هنا يا مصرى ؟

تشبعت لهجة وصيغة السؤال بالعداء .

ماذا يفعل البشر - مصريون وغير مصريين - فى سوق للملابس ؟

وثمة مصريون ومصريات كثيرون يتلكأون ، مع سحن افريقية وأوروبية، بين المعروضات ، لم يكتف المطاردان بما فعلاه ، وها هما يأتيان فى استعراض للقوة ، يبدأ- فى سفور - باستفزازى حاولت أن ابتسم ، وقلت :

- جئت أبحث لطفلى عن غطاء رأس أحمر !

اكتشفت - متأخراً - بلا هتى وأنا أحاول التلطف مع أنياب حادة بارزة. لم يتكلم المطاردان ، واستمر مسئول السوق يلاحقنى :

- وماذا تخفى تحت سترتك ؟

فاجأنى السؤال ، وفكرت فى مجموعة من الأشياء دفعتنى محصلتها إلى الضحك بقوة ، حتى دمعت عيناى . صاح بى مدير السوق بوقف ضحكى :

- ماذا يضحك أيها السارق ؟

فتوقفت عن ضحكى ، وعمدت إلى سترتى أخلعها . كان ذلك ردى على الاتهام . ثم عدت ، فارتديتها ، وأخذت أصلح هندامى ، وقد تجمع عدد من رواد السوق ، شدهم المشهد الذى يكسر رتابة صباحاتهم فى حياة جامدة خالية من الجمال والمتعة .

طردت الابتسامة البلهاء التى تخرج كزائدة دودية عند مثل هذه المواقف التى لا تجدى معها أى محاولة لإضفاء اللطف عليها والتهوين من قبحها .

ارتفع صوتى ليسمعه الجميع ، قلت :

- أيها الأخ المدير ، أنت تعلم جيداً أننى لم أسرق شيئاً ، فأنا مدرس محترم ، جئت أعلم أبناءكم ..وقد طاردنى هذا الشاب ومرافقه فى الطريق إلى هنا ، وأهانانى طويلاً ثم دخلا ورائى ، ولجحا فى استعداائك علىّ .. كل ذلك لأننى منعت هذا الطالب من الغش فى الامتحان بالأمس ، وأصررت على طرده !"

وكنت منتشياً ، أحسب أن الضوء افترش المكان .

ازداد تجهم المدير ، وبدأ يبعد المتجمعين حول المشهد ، فأدركت أنه يعد العدة لجولة أخرى ، وأنه - أمام التعرية - يبعد الأنظار ، ليعود إلى مكمنه فى الظلام ، مصراً على محاصرتى ، وظهرى إلى حائط كئيب ، خلفه صفوف من الأشجار لا تغنى عصافيرها .

كان يتحدث كآلة مطاطية :

- "أنت سارق ، وتتعمد إثارة الناس فى مكان عام .. الشرطة قادمة !".

هنا ، أسقطتُ كل ما حولى من قائمة الموجودات . وظللت واقفاً معهم لدقائق قليلة ، نبدو من بعيد - كأصدقاء كفّ الكلام بينهم .ولما جاء رجال الشـرطة ، أشار المدير إلىّ ،فـاقـتادونى إلى عـربة فـاخرة . سـأظل - طيلة عمرى - أؤكد على اننى سانسى مـا أضافوه من إهانات ، وأننى سأتشكك كثيـراً قبل أن أصدق ، وإن كنت أشك فى قـدرتى على نسيان صفـعة على وجهى ، فاجأنى بها سائق عربة الشرطة وهو يسب - فى حماس واضح - شرف أمى ، ثـم ركلة منه ، وهو يدفعنى إلى هذا المكـان الذى مرّ علىّ فـيه دهر ثقيل ...

(٢)

* الماء يرتفع
* بيت الأنفوشى
* جمال عبد الناصر
* خالد
* اركبوا دراجاتكم !

الماء يرتفع

يحرمنى ذلك الجهاز الإحساس المبْهج بوقع ملامسة الهواء الطبيعى لصفحة وجهى . وهذه الحجرة المسجونة داخل مساحات الزجاج والألومنيوم ، تطل ، من ثلاث جهات ، على البحر ... أحبها ، حجرة مختبرى ، وأقضى بها معظم يومى ، أعمل وأقرأ وأكتب وأجالس أصدقائى ، فلما ازدحمت بالأجهزة وحلّ بها مكيف الهواء ، صارت محبساً ، وصرت مكرهاً على أن أقضى بها وقتاً أطول ، دون مخالطة ، منكباً على مراقبة مستويات التلوث ، أنصت إلى طابعة الحاسوب ، وأحاور - من خلال دائرة الكترونية - أفراداً مثلى ، لا أحمل لأى منهم مودة الأصدقاء ، يجلسون متناثرين على امتداد حوض البحر المتوسط ، فى مثل هذه الحجرة ، يرصدون أحوال هذا البحر الذى ، نعرف جميعاً ، أنه يحتضر .

أرفع سـمـاعـة الهـاتف الداخلى ، وأجـد من يمازحنـى : هل يمكننا أن نقضى معك بعض الوقت فى مشرحة البحر المتوسط ؟!

يتركـون مختـبراتهم ، وينزلون إلىَّ ، يتطلعـون إلى مكتبـتى ، ويقرأون أسماء هوميـروس و فرجيل وحسين فوزى ونيكوس كازانتـساكس وألبير كامـو وناظم حكمت وكاتب ياسين وفـديريكو جارسـيا لوركا وحـنا مينا وكونستانتين كافافى . لا يعرفونهم ، ويـقولون : هذه أغرب مكتبة يحتويها مختبر للبيئة البحرية !

وكـيف أفهـم هذا البحـر بدون هؤلاء ؟ أقـول لهم . وهل كـان هؤلاء يتتبون فى غير وجود هذا البـحر ؟ . أسألهم ، فكيف - يا أصدقاء - يمكن الفصل بين هؤلاء الأبناء وكيمياء ميـاهه ؟ . وحين يشيخ وتنتشر البثور فى جسـمه ، لا نسـتطيع أن ندعى أننا وحدنا أطبـاؤه ... هؤلاء عرفوه قـبلنا ، زرقة صافيـة لا شائبة بها ، وتغنوا به ، أو رأوا سفنه تحـمل الجند من شماله إلى جنوبه ، أو من جنوبه إلى شمـاله ، واحتفظوا لنا بصور غـائمة لقذائف مشتعلة وسهام تعرف طريقـها إلى قلوب كل الأطراف .. فهل تعتقدون أن هذه الأجهـزة التى تزاحمنى غرفـتى تكفى وحدها لرسم دقات قلبـه وتتبع سريان السم فى أحشائه ؟ .. اشربوا شايكم وامضوا من حيث جئتم !

لم يزرنى أحد طيلة هذا النهار ، فكان الوقت كله لـلعمل ، حتى غابت الشـمس واكتـشفت أننى لم آكل شـيئـاً منذ غادرت البـيت فى الصـباح ، مكتفـياً بالمشـروبات . خرجت من دائرة الانغـماس فى العـمل ، وأعددت

بعض الطعـام والشراب ، وتركـت المختـبر إلى شـرفة متـسعـة تطل على أحـواض تجـريب مـتـصلة بالبـحـر . جلـست فى مـقـعـد مـريح ، أطلب الاسترخاء ، آكل وأشرب .

لم أحصل على الراحـة المرجوة . لـم يكن الهواء لطيفـاً .. كان ساكناً ، وعـبئـاً ثقـيلاً علـى صدرى . لم تكن أصـوات تلاطم الأمـواج الصـغيـرة وتصارعها عند فـتحات الأحواض واضحة ، وكنت أفـتقد تلك الأصوات الفضية الموشوشة لدى تراجع المويجات معرِّية خط الرمال الضيق . كان من السهل اكتشاف هذا التغير الخبيث ، ولكنى بقيت ، لدقائق طويلة ، يتعاظم بداخلى إحساس بأن ذلك ليس كل شئ ، وأن ثمة خللاً يكمن هنا أو هناك - ربما يكون مـدفوناً عند القـاع - ويسرِّب تلك القلقلة تصب فـى الصدر ضيقاً.

لمحت شبـحاً يتـجول فى الممرات بين أحـواض التجـارب ، يميزه طوله الفارع وانحناءته . صـحت : يا عم فلفل . توقف . استـدار ، ورفع رأسه ، سألته : ماذا تفـعل عندك ؟ . لم يجب . انسحب مختفيـاً عن عينى . وكما توقعت ، سـمعت خطواته البطيـئة إلى الخلف منى . جـاء يجيبـنى بصوته الواهن : الجو مخنوق والبحر عال . قلت : ماذا تعنى .. لا أرى موجاً !؟ . استمر كأنه لم يسمعنى : الأسماك تتقافز هاربة ! وصمت قليلاً ليرفع عينيه ويشير إلى السماء : وانظر هل صادفت ليلاً أصفر من قبل ؟!.

واهتـز يغـادرنـى ، تزحف قـدمـاه على الأرض ، وبى مـيل شـديد

لاستبقائه، غير أني تركته يبتعد مستسلماً لدهشة كبيرة أثارتها كلماته . كان لسانه ثقيلاً ، وكان حزنه غريبـاً عليه ، وهو الدائم الابتسام ، في إقبال على الحياة ، أو غـير مكترث بها وقـد تهيأت لمغادرته ، وهو الصـامت غالباً ، لا يكاد يرد تحية ، يأتي وينطق كـلمات كـالشعـر ، كأنه صعد إليّ برسـالة ، ألقاها بين يديّ وانصرف . هذا العجوز فلفل .. كان يجب أن يتمهل ، وأنا منهك لحـد أنني اكـسل عن مـحـاولة اللحـاق به وإعـادته ليـجـالسني في الشرفة، أريده أن يقول الكلمات ثانيـة ، لأتأكد من أنها لم تكن غريبة على .. كانت تتردد ، هنا أو هناك ، قبـل أن تلتقطها أذناى من فمه الأدرد .. لا أقول بأنهـا كلماتي ، ولكـنى - قبل قليل - كنت أحـتاج إلى من أسُـر إليه بخوفي من تشـقق وجه القـمر وانهيـاره في الفضاء ، وكنت أداور هاجـساً يخاتلني : لماذا هو قريب إلى هذه الدرجة في هذه الساعة ؟ ، وكان أصفر ، كوجه إمرأة تعاني داء المـرارة . ولكن .. هل استتبع ذلك أن يصطبغ الظلام بالصفرة ؟ . ذلك ما أستطيع مـلاحظته الآن .. فهل سبقني فلفل إلى فكرة إصفرار الليل ، أم أنني كنت أخبئها ، ربما خزياً من ذهن يقترب به الإجهاد من حافة التهاوى ؟

تأكد لديّ احتياجـي لفلفل ، ودفعني ذلك إلى أن أجد القدرة على رفع صوتي صـائحاً باسـمه . تردد صـياحي في المكـان ، ثم - فجأة - تـدفقت أصوات عـالية قضت على أي أمل في أن يسـمعني فلفل فيـأتي . أصوات آلات نفخ ونحاسيات ، وإيقاع أجش متسارع ، وصراخ بشر ..

كهـرباء تغرق أذنّي ، تدفعني لأسـقط في حلزون معدني . فـجأة ، لاح

فلفل أمام مقعدى . صحت به حانقاً : بح صوتى من النداء عليك . قال : يجب أن نغادر المبنى . عدت أصيح : أنا الذى أقرر متى أترك مختبرى .. افتح لى باب الاستراحة لأغفو قليلاً .

عاد يصرُّ على ضرورة مغادرة المبنى . استمر صياحى : وما هذه الأصوات المنفِّرة ؟ .. هل عدت تؤجر المكان للداعرين ؟ . قال إنهم يتقاطرون .. حشود لم تر عينى مثلها ! تصاعد غضبى : عم تتحدث ؟ . رفع يديه مستسلماً : أحاطوا بالمبنى ، واقتحموا علىَّ البوابة !

مددت يدى أجذبه . تباعد : ليس الذنب ذنبى .. إنهم يفترشون الطرقات والسلالم .. سوف تراهم .. ستراهم ، سيجيئون إليك .. لا تخف .. إنهم مسالمون !

أعاننى على الوقوف ، وقادنى لأطلّ على أحواض التجارب .. قال : انظر .. المساخيط يملأون الأحواض !

لم يكن يخرف .. كان الضوء الباهت يحيط بأجسامهم غير المستقرة ، فى الأحواض ، وعلى الممرات ، وفى المساحة المنظورة حول المبنى ، ويغطون مساحات المياه ، يطفون فى شبه سكون .

قبل كل شئ ، يجب أن أتماسك وأسرع إلى الشبكة الالكترونية أبث ما رصدته عيناى . التفتُّ طالباً مساعدة فلفل . كان قد اختفى . نجحت بصعوبة فى التشبث بمقعدى ، وقد تخاذلت ساقاى . ارتطمت بالمقعد جالساً . سمعت صوت فلفل إلى الخلف منى ، يقول : هذا هو ..

وقبل أن أتهيأ للالتفات إليه ، وجدتهم يحيطون بى . لم تخفنى هيآتهم.. لا أدعى الشجاعة ، ولكن نوعاً من الشعور بالتعاطف والألفة يتسرب ليملأ الفجوات بينى وبينهم . بل إننى لم آخذ فى تأمل أنصافهم السفلية بدرجة كبيرة من الإنكار والدهشة .. ربما بشئ من الانبهار الذى كان يتوفر لى فى زمن مضى ، وأنا أحاول - فى كراسة الرسم المدرسية - تقليد أشكالهم التى كان عمى الصغير يحترف رسمها على واجهات بيوت الحجاج .

سمعت صوتاً يقول : أنت المشارك الوطنى فى خطة مراقبة أحوال البحر المتوسط .. لم يكن يسأل . كان يؤكد . لم يكن صوتاً لأحدهم ، أو للمجموعة معاً .. بل لعلهم لم تتحرك لهم شفاه .. ومع ذلك ، أجبت : هو أنا .

عادت أذناى تسمعان الصوت : أغلق ملف الخطة .. انتهى كل شئ .. لا أمل . صحت مفجوعاً : هل حدث ؟

همهموا . كان صدرى يتصدع ، وكنت بحاجة إلى دموع . قلت : كنت أحاول التماسك وأنا أراه يموت !

سألوا : عمن تتكلم ؟ . قلت : بحرنا .. المتوسط ؟

تضاحكوا : بحرنا ؟! .. بحرنا ؟! .. أى متوسط ؟!

وصمتوا ، ينتظرون ردى ، وأنا ألتقط إشارات غريبة وأشم فى إحاطتهم بى قلقاً وريبة . وكانوا ينسحبون ويقفزون إلى خارج الشرفة حين

تقدم منى فلفل ..كان يرجونى : الماء يرتفع يا دكتور .. إنج بنفسك !

واضحكنى أن رأيت القشور تغطى نصفه الأسفل ، وقلت له : كيف ستقود طالبى المتعة إلى الردهات الليلة ؟

وكان يبدو صادقاً وهو يتراجع إلى سور الشرفة ، ويقول : لقد أديت واجبى وحذرتك .. هذا زمان الماء !

وكنت أرى الماء يرتفع فعلاً ، والأرض تسرع إلى نهايتها ، وأنا لا أرغب فى بديل عن أطرافى أو عن رئتين لا تكفان عن العمل ، وإننى أرى خيوط التلاعب ، وأننى أُدفع إلى جحيم من الهلع لأستسلم – فى النهاية – إلى حياة الماء . حسناً .. لتذهب المياه إلى ذرى الجبال – صحت ، بعد اختفاء آخر الهاربين إلى الماء – فسأبقى ، وحدى ، آخر المؤمنين باليابس ، مكتفياً بطوف صغير يحتفظ بصفحة وجهى فى صخب الشمس والهواء .. طوف من ورق وأحبار يعيش فى ركن من حجرتى ، رأوه وسخروا منه ، أراه يتهادى إلىّ ، وأسمع همسه الرقيق : لتهدأ .. لا تخف ، فتهدأ نفسى ، ويتسرب القلق إلى الماء الزاحف مرتفعاً إلى مستوى كتفىّ ، ويهتز جسدى، وأرى لحظة النجاة ..

بيت الأنفوشى

تغيرت ملامح المكان ...

اختفت البلاطات البازلتية الصغيرة ، وحل الأسفلت الناعم مكانها . حتى صوت عجلات الترام ، لم يعد بنفس الرتابة القديمة . لكن ركناً فى الذاكرة لا يزال يخبئ شيئاً من تلك الألفة القديمة ، ويجعل القدمين لا تشعران بالغربة فى خطوهما ، برغم شحة الضوء ، وبرغم غبش السنين الطويلة . فلا يزال الزقاق محتفظاً بذلك الميل المحسوس عند التقائه بالشارع الكبير .. لتنزلق مياه المطر إلى الخارج ، حاملة مراكبنا ، تندفع إلى المجرى العام الموازى للرصيف ، ونحن وراءها نتصايح ونترقب : أى منا ستصمد مركبه فى وجه الريح والأمطار ، قبل أن تبتلعها الدوامة فوق البالوعة المواجهة لحلقة الأسماك ...

وفى جيبى سلسلة يزيد عدد المفاتيح فيها عن عشرة . أخذتها كلها ، بعد أن عجز الجميع عن تحديد أيها الخاص بحجرة جدى فى بيت

الأنفوشي . وكنت واثقاً من أنني سأصل إلى الحجرة دون حاجة لمفتاح ...

كان للبيت باب ضخم محلى بنجمات خشبية صغيرة ، استعصت على محاولاتي المتكررة لانتزاعها ، ومفصلتان كبيرتان ، كنا نصلهما بحبل نتأرجح عليه . لم يكن جدي يقفل الباب ، حتى بالليل ، وكنا نتساءل عن فائدة الرتاج الحديدي الضخم الذي رأيناه يركبه بيديه .

ويجب أن أعترف بأن ثمة تشوشاً ، وقدراً من القلق ، وإحساساً مؤنباً يشكك في جدوى ما أفعله ، ليس بسبب ما وجدته من معارضة إخوتي ، أو لتخوف أمي وزوجتي من خطورة الإقبال على هذه المغامرة المجنونة ، باقتحام حجرة مغلقة منذ ثلاثين سنة ، في منزل مهجور ، نصف أسقفه متهدم ، وتهتز جدرانه عند مرور الترام على بعد مائة متر . .

قد تكون الرائحة هي السبب ... أحشاء السمك وقشور الفاكهة والعادم من الخضروات ، تتراكم طول النهار ، لتبدأ في إطلاق روائحها ليلاً، حتى يمر عمال النظافة في الصباح ويزيلونها .

نعم .. هي الرائحة .. رائحة التحلل الحامضية ، تقتحم أنفي سائدة . لم تكن - من قبل - وحدها . كان هناك البحر ، يعدُّ لنا خليطاً حميماً من رذاذه وملحه وعطر الأعشاب واليود ، يسري في الهواء لتغتسل به الشوارع والبيوت ، وتعبّ منه الرئات ، وتتفتح له المسام . كما أنني - وقد دخلت الزقاق فعلاً - لا تستقبلني رائحة السردين ...

نعم ... نعم .... رائحة السردين ...

السردين المشوى فى نخالة الدقيق ، والسردين المصفوف فى الصوانى والصاجات متبّلاً وأنصاف ثمار الليمون موزعة بين صفوفه ، نحمله إلى المخبز البلدى فى نهاية الزقاق ونتأكد من أن الخباز العجوز رسم أسماءنا على حواف الصوانى والصاجات المتشابهة ، قبل أن يدخلها إلى النار .

هى - إذن - الرائحة ... تقول الذاكرة .

كذلك ، يبدو الزقاق موحشاً ، لم أقابل شخصاً واحداً منذ دخلته . صحيح أن البرد شديد ، ولكن الليل لم يتقدم . لم تكن الحركة تهدأ فيه . على الأقل ، كنت تسمع صوت مذياع . أين المصباح الذى علقه جدى فى حلق الباب ، وكان يطفئه عند عودته من المسجد فجراً ؟ . لا أحد يسعل ، ليعرف السائر بالليل أنه ليس وحده .

وكنت أمام الباب تماماً ، ثلاثون عاماً لا تجعلنى أنسى أنه عاشر باب إلى اليمين . أتعرَّف - فى الضوء الشحيح - على النوافذ المغلقة التى كانت متآكلة الأخشاب دائماً . فقد الباب نجماته الخشبية التى تحدثنى زمناً طويلاً . واضح أنه مغلق ، فثمة لوح خشبى عريض مثبت على المصراعين ، يربط بينهما ، لا أعرف أن أحداً منا أغلق أو طلب إغلاق الباب بهذا الشكل .

دفعت الباب . لم يستجب . هززته فأصدر ضجة وصريراً . عدت أهزه وأدق خشبه فتعالت أصوات الضجة . سمعت حركة فى نافذة الدور الأرضى إلى الخلف منى . التفتُّ . رأيت شقاً ضئيلاً مفتوحاً ، لم أعرف من وراءه . شككت فى أن يكون جاراً قديماً .. لا يمكن أن يكون رآنى ثم

يعود ويغلق الشق دون أن ينطق بحرف .

طالت وقفتي أمام الباب ، وقد أجهدتني المحاولات ، وأزعجني هاجس يلاحقني بأن ثمة من يسمعونني ويعرفونني ويقبعون خلف النوافذ والأبواب . وكنت أنعي هؤلاء الذين كانوا يميزون رائحة الغريب إذا ساقته قدماه إلى شبكة الأزقة الضيقة ، ويتدخلون فيما يعنيهم وما لا يعنيهم . ماذا جرى لهم ؟

أجابت يد صغيرة لطفل وجدته أمامي فجأة . لم أتبين ملامحه جيداً ، فربما كان قزماً مسناً ، لم يتكلم ، وإنما سحبني من يدي إلى باب البيت المجاور ، يعرف طريقه في الظلام ، إلى باب صغير تحت سلالم البيت، دفعه ، وتركني أدخل ، وعاد إلى الظلام .

مشيت في ممر جانبي طويل ، أفضى إلى منور خلفي ، تطل عليه الحجرات الخلفية في بيت جدي ، كان المكان أشد إظلاماً من الزقاق ، ولم يزايلني ذلك الوسواس بأن ثمة من يراني ويسمعني ، فجأة ، وجدت شيئاً يتدلى أمام وجهي . كان سلماً من الحبال . وجاء صوت : إصعد إن شئت.

تسلقت الحبال المهتزة ، وامتدت يد قوية شدتني لأدخل من خلال نافذة كبيرة لحجرة كان يسكنها أحد أعمامي . لم يكن لها سقف . فقد الدور العلوي معالمه تماماً . أين الممر الطويل وحجرات الأبناء على جانبيه ؟

قال الرجل الضخم ، بعد أن سحب السلم : أمامي !

سرت أمامه . نزلنا سلماً غير الذي أعرفه . كان الدور السفلي حالكاً

تحسست المكـان مستعيناً بخبرتى السابقة . وعند مـوقع دورة المياه ، تدفق الضـوء حين فتح باب جرار . دخلت . أرض مـفـروشة . جـدران مبطنة بالخشب . إضـاءه بلا مصـدر ظاهر . دفء . ثلاثة رجـال يجلسـون على حـشاياً، وفى ركن بعـيد ، تجلس إمـرأة أمـام موقـد ، ومنهمكة فى إعـداد الطعام، غير ملتفتة لدخولى .

ويبدو أن تحديقى إليها طال ، فلاحظ أحدهم دهشتى ، فقال :

- "وديدة .. إحدى زوجات الحاج صفى الدين !"

صدق ظنى .. أصغر وآخر زوجاته . لم ينل منها الزمن كـثيراً ، وكنت أحسبها رحلت مع الراحلين . قال آخر :

- تطهو لنا أرزاً بلحم السلاحف .. أكلة جدك المفضلة !"

قهقه الأول ، وأضاف :

- "كان يستعين بها على حريمه !"

وبقى الثالث ، أوسطهم ، صامتـاً فى تجهم . لم يدعنى أحد للجلوس ، ولم تكن هناك حشية رابعة .

الهاجس يشارف منطقة اليقين . كانوا يرقبوننى منذ دخلت إلى الزقاق، وربما قبل ذلك . أجهل الرجال الثـلاثة ، تخلو وجوههم من الود . أخيراً ، تكلم الثالث :

-"وما سبب الزيارة الكريمة ؟"

قلت : "مكتبة جدى ..."

وأشرت إلى أرفف الكتب فى القاعة .

تلفتوا إلى بعضهم .تهامسوا . كانت الكتب مجلدة ، مصفوفة فى مكتبة جميلة تغطى جداراً كاملاً .

تركت "وديدة" ركنها ، وأقبلت بصينية عليها أطباق ثلاثة ، وقالت ، غير عابئة بوقفتى : قبل أن يبرد ..

أخذ الرجلان ، عن اليمين وعن الشمال ،طبقين ، وتسابقا فى نقل الأرز الساخن وشرائح اللحم إلى فتحة الفم ، أما الأوسط ، فقد جلست "وديدة" أمامه ، وأخذت تطعمه بأصابعها ، فأدركت أنه لا يبصر .

كان المشهد مسلياً وسريعاً ، فلم يتعاظم قلقى .

اختفت وديدة بالأطباق الفارغة . مسح الثلاثة أفواهم بظهور أكفهم ، وبدوا منتعشين . عاد الأعمى يسألنى ، كأن حوارنا لم ينقطع :

-"ولماذا لم تفكر فى المكتبة فيما مضى من عمرك ؟ "

وكان جوابى حاضراً : "حصلت أخيراً على مسكن متسع .. وخصصت لها مكاناً فيه .."

بدا عليهم أنهم لم يقتنعوا بما قلت . أردفت :

- "ثم إن لى بها منفعة .. ستعينني فى عملى .."

قال أحد المبصرين : "وما عملك ؟" .

قلت : "أدرّس التاريخ وأدرُسه» ..."

سأل المبصر الآخر : "ومن أدراك أن جدك كان يحتفظ فى مكتبته بكتب التاريخ ؟"

أجبت : "كنت أراه يقرؤها .. وكان يروى لى بعض فصولها .." .

صاح الأعمى : "تريد أن تستأثر بالمكتبة والمحاكم لا تزال مشغولة بنزاعات الورثة !" .

قلت : "أنا وحدى أستحقها .. لم يطلبها غيرى .. كلهم يرونها مجرد كتب صفراء من سقط المتاع ..."

قال الأعمى : "كلهم لا يعرفون الحقيقة .. وأنت أيضاً !"

التفت إليه المبصران ، ولمسا - معاً - كتفيه ينبهانه إلى أمر يزعجهما . دفع يديهما عن كتفيه ، وقال فى حسم :

- "لقد أتى إلينا بقدميه .. وعليه أن يعرف!" .

وأمرنى :

- "قم إلى المكتبة .. تعرّف إلى تركة الحاج صفى الدين !"

قمت ، وقد استقر لدىّ دنوى من المراد . رحت أفتح المصاريع الزجاجية ، تجرى عيناى على كعوب المجلدات السوداء اللامعة الموشّاة بكتابات وتمنمات مذهبة . كانت خالية من رائحة الفطر التى كانت تلازمها فى فوضى تكومها بخلوة جدى فى تلك الحجرة راكدة الهواء فوق سطح

البيت . وكنت أبتسم وأنا أنظر إلى الرجال الثلاثة ، وقد زالت غضاضتى تجاههم . كانوا يتهامسون .

قال الأعمى ، بنفاد صبر : "لا تتحسسها ، بل فضها وانظر ..."

سحبت مجلداً ضخماً . فتحته عند المنتصف . الورق أبيض صقيل . طباعة حديثة . دققت وقرأت بعض العناوين ..كانت لموضوعات فى البستنة . عدت إلى كعب الكتاب . كان يحمل عنواناً لمتن فاطمى . امتدت يداى إلى غيره . تأكد الخداع . أخذت أنبش أرفف الكتب غير مصدق . كانت صفحات بعضها صفراء مسودة ، تلاصقت إلى بعضها حتى صارت كتلة واحدة ، يستحيل استخلاصها صفحة بصفحة . التفتُ إليهم مترعاً بالتوجس :

- "ما هذا ؟ .. ماذا فعلتم بها ؟!"

قالوا : "هى .. هى .."

قلت : أرفض أن أصدق !

سأل الأعمى رفيقيه : كيف يبدو ذلك الرجل ؟

رد أحدهما : جاء راسخاً ، فلما ثار شابه بعض الحمق ...

قال الأعمى ، واثقاً : سيعود إلى ثباته .. هو منّاً ، بحق !

كان ذلك آخر ما توقعت . صحت : أو أنتم .. ؟!

لم يدعنى الأعمى أتم الاستنكار فى سؤالى . قال :

- "نحن بعض أعمامك !" .

ولم أكن أمتلك قرائن التشكيك ، ولن يضيرني قبول انتمائهم إلى مائة وعشرين ابناً وحفيداً للحاج صفى الدين .وإذا كنت لم أرهم من قبل ، فأنا لا أعرف مائة - على الأقل - من أعمامى وأبنائهم .

وكان عليّ أن أستوثق : أهكذا وجدتم الكتب ؟

قال أحدهم : بل أضفنا إلى ظاهرها حسناً منذ آلت إلينا !

عدت أسأل : كنتم - إذن - تشاركوننى الاهتمام بها !؟

قال الأعمى : كان اهتمامنا بها حتماً !

سألته : ماذا تعنى ؟

أجاب : بغير تردد : هى أكل عيشنا ومركز وجودنا !

قلت : لم أسمع عن تجارة الكتب مهنة فى العائلة ...

قال : بل تجارة أخرى أشك أنك عرفتها فى العائلة ...

قلت : أى تجارة ؟

قال : عد إلى الكتب التى فضحت سترها .. دقق فى مادتها ..

قمت إلى الكتب المتناثرة فوق كساء الأرضية القطيفى الأخضر . لملمتها ، ورحت أتفحصها . استجابت لى ، ولاحظت أن بعض صفحاتها مثبت به أكياس من ورق رقيق ، أو من النايلون ، بحث لا تمثل إضافة

محسوسة إلى حجم الكتاب ، فيبدو ظاهره طبيعياً . انتزعت بعضها وأخذت استشعر محتواه .

قال أحد المبصرين : لا تقربه من أنفك ..

قال الآخر : هذه هي بضاعتنا .

اضطرب صدري لهول ما اكتشفت ، فكان همي السيطرة على ما حل بي من فوضى ، وكنت أكابد الكدر وأحاول التماسك .

ابتسم مبصر ، مسيئاً ترجمة ردود الأفعال المكبوتة بي ، وقال : "هكذا!.. نِعمَ الحفيد !"

وبدا تساؤلي - لي - بلا معنى ، مبتسراً :

- "هل كان .. وهل كانت .. ؟!"

فهم الأعمى ، وأجاب ، برغم النقصان :

- "هكذا كان أبونا ومعلمنا ..وهذه هي آسرتُك .. مكتبته !"

وغمرتني علامات استفهام متقاطرة : وحياة الزهد ؟ والجمعية الخيرية؟ وبناء المسجد عند بوابة ميناء الصيد ؟ وموته ساجداً في موقع الإمام ؟ وحكاياته لي ؟ والدهشة يسكبها في مهد وعيي ؟ والدنيا التي شكلتها تحت عباءته ؟ وألوانها التي عرفتها - أول ما عرفتها - في خرزات مسبحته ؟ والبيت المتهدم الذي تركه لنا نتقاتل حول سنتيمترات من أرضه ؟ .. رجل بتجارته تلك ، أما كان كفيلاً بأن يفيض على أبنائه وحفدته ويغنيهم عن

تبادل البغضاء ؟

ولدهشتى ، أجاب الأعمى ، برغم تيقنى من أننى لم أبح بما سألت : لعلك تعرف - مثلنا - كل الإجابات .. أما عن النقود ، ففى الحفظ والصون ..أصول التجارة والأرصدة .. رهن إشارتك !

ولدهشتى ، أيضاً ، لم تكن استجابتى أن أطيح بهم قبل أن أوليهم ظهرى . قلت : تعنون .. ؟!

قال الأعمى : لهذا قدمت .. يا صفى الدين !

كأننى لم أعرف لى إسماً من قبل ...

قال أحد المبصرين : عمك الكبير ضرير ، ونحن - كما ترى - مقعدان!

وكنت لاحظت أنهما لم يتحركا طيلة الوقت .

عاد الكسيح يقول : وأنت أملنا !

وكنت أراهم يشدوننى إليهم ، فأصابنى الفزع ،وهرولت متراجعاً : هراء .. هراء .. افتحوا الباب !

كان الأعمى هادئاً ، وهو يؤكد :

- "الباب مفتوح .. يمكنك - كما جئت - أن تذهب يا مدرس التاريخ.. لكنك لن تهرب " !

وأخذت أصيح : لن يكون .. لن يكون .. لن تفلحوا ..

استمر - هادئاً - يقول : طريق السلامة !

صفقت الباب خلفى .

عـدت إلـى رائحـة الرطوبـة والعـفن والبـــرد والظلام وممرات البـــيت المتساقط .

عدت إلى النافذة وسلم الحبال .

عدت إلى الزقـاق ، وهلام الأسئلة لا يزال يتـوالد . وكان أكثـر ما يلح عليَّ ، وخطاى تتـسارع على أسـفلت شـارع البحـر : هل هـم وراء إظلام الزقاق ؟ . هل رتبـوا للصمت يشـيع فيه والعـيون تتلصص خلف فتـحات النوافذ ؟ . هل منعوا أن يسعل أحـد فى الظلام ؟ . وما السر وراء اختلاف الروائح ؟ . وهل للحوم السلاحف المسلوقة رائحة .؟

جمال عبد الناصر

أجزم .. لم يكن لأبى يوماً مثل هذا الصندوق الأسود المرتفع لم يكن فى بيتنا مكان يمكن أن يخفيه فيه .

.. وكان يمد يده ويخرج أشياء متعلقة بطفولتى ، لا أعرف ، يقيناً ، إن كانت مرت بسنوات عمرى الأولى . أذكر البذلات العسكرية الثلاث : جيش ، وطيران ، وبحرية ، أذكرها ، وكانت كلها تحمل رتبة لم تتغير ، هى "البكباشى" .ولا يزال محفوراً فى وعيى حزنى وحسرتى ، لأنها كانت - جميعاً - بلا غطاء رأس .. كانت نقود أبى تعجز - فى كل مرة - عن شراء الزى كاملاً .. وكنت أقضى أيام العيد أحاول ألا أبدي هذا النقص الواضح ، ليكتمل زهوى بين عيال الشارع وتميزى عنهم وكنت - عندما يسألوننى - أرد عليهم ،كما علمنى أبى ، وبشئ من عدم الاكتراث : الضباط العظام لا يضعون غطاء الرأس فى كل الأوقات !

دعونى أسلم بأن أبى كان يملك مثل هذا الصندوق الأسود الكبير . والحقيقة أننى متأكد من أن هذا الصندوق نفسه كان يخص "الشاويش

الشـوربجى" زوج "الست أم محـمـود" جارتنا فى البـيت الكبـير فى غـيط العنب . تسللت يومـاً إلى حـجرة النوم المـلحقـة "بالمقعـد الكبـير" ..كـان الصندوق مفتـوحاً ، تفوح منه رائحة الملابس والمهمـات المخزونة .وكان به بذلات الشـاويش البيـضاء والسـوداء وأحذيـة غليظة وبطاطين داكنة ذات ملمس خـشن . كـان هدفى أن آخـذ غطاء رأس أسود وأن ألمس المـساحـة النحاسيـة المستطيلة اللامعة فى حزام الشـاويش الشوربجى ، ولكن الوقت لم يسعفنى . كـانت أم محمود مسـتلقية عارية فوق الـسرير .. لم تنهرنى ، وقالت بلطف : عايز إيه يا ولد يا عكروت ؟!

كـان صندوق الشـاويش مـحـدوداً ، ولكن صـندوق أبى لا يكف عن إخراج أشـياء عجـيبة ، أكـاد لا أصدق أنها كانـت لى . ولكن أبى يؤكد ، ويظل يقول لى : هل تذكر هذه ؟

أنظر .. هذه أوراق دعاية انتخابية للاتحاد القومى .. كنت تجمعها .. هل نسيت ؟

أنظر أيضاً .. غطاءات زجاجات المياه الـغازية .. سينالكو .. سباتس .. بيبس .. كنت تلعب بها .. هل نسيت ؟!

ويظل يخـرج أشيـاءه من الصندوق حـتى ازدحـمت الحجـرة بالملابس والأوراق واللعب الخشبية وكرات مصنوعة من الجوارب القديمة .. ويخرج لى من بين فوضى الأشياء نبلة ذات مقـبض حديدى ، ويقهقه : هذه بعض أسلحتك .. كنت تحملها فى ٥٦ ، وضربت بها عين على ابن المخبر فكدت

تفقأها !

وأقول - متشككاً - ربما . وأقترب فألمس المقبض الحديدى ، وأجد الأجزاء المطاطية فسدت بتأثير الزمن ..ولكنى أجد قطعة الجلد السوداء التى كنا نضع فيها مقذوفاتنا من الحصى لا تزال متسخة بالتراب . وأقول : لابد أننى كنت أصطاد بها العصافير . والحقيقة أننى كنت أشارك الأولاد جولاتهم تحت الأشجار عند ترعة المحمودية .. وكنت أجيد التصويب ، ولكنى كنت أطلق حصواتى بعيداً عن العصافير متعمداً . وكان على ابن المخبر يرجع وفى يده خيط مرصع بعشرات العصافير ، مؤكداً تفوقه على . كنت لا أكترث . وكانت البنت التى لا أذكر اسمها تقول لى إنه لا يحبك . ولما اختلفنا على من يكون جمال عبد الناصر ومن يكون إيدن ، كانت هى البنت نفسها التى احتكمنا إليها ، وقالت على يكون إيدن ، فهو أحمر الوجه ويسب الدين كثيراً .. وجعلتنى أنا جمال عبد الناصر لأننى ألبس "بدلة ظباطى" فى العيد ، ولأننى طويل وفى وجهى مناخير تشبه مناخير الريس . وجهزنا كل شئ للحرب . وأحضرت لمجموعتى أقواساً صنعتها من خشب الأقفاص المخرَّم ، وسرقنا الأسانك من دواليب أمهاتنا ، وجهزنا الاسهم المدببة . ووضع كل ولد خمس قطع متوسطة الحجم من الطوب فى جيوب جلبابه . واكتفيت أنا بالنبلة ، وحشوت جيوبى بذخيرة كافية من الزلط .. وقلت للبنت التى جعلتنى جمال عبد الناصر أنت وزيرة. واختبأنا خلف عربات اليد التى يتركها باعة الترمس فى آخر الشارع.. فلما ظهر على ابن المخبر وجنوده ، أصدرت أمرى بالهجوم ،

فكانت أول إصابة فى عين على . صرخ ، وذهب إلى أمه التى لفت ملاءتها حول وسطها ، وهرولت إلى أمى تزعق وتشتم . ولما عاد أبوه من الشغل اصر على سحب أبى إلى نقطة البوليس لولا تدخل أولاد الحلال . وكنت مختبئاً خلف باب عمارة (توداري) خوفاً من غضبه أبى .وهناك ، جاءتنى البنت ، وزيرتى ، وأعطتنى لقمة القاضى . وكنت مندهشاً جداً لأن عظام ذراعها كانت واضحة تماماً ، وكانت تبدو هشة وأنا أبوسها ، وكانت جميلة فعلاً ..

فى المساء ، كان احتفالنا .. حملنا دمية من الأقمشة البالية ، ألبسناها قبعة أفرنجية أعطاها لنا (أبو طوبة) تاجر الخردة والروبا بيكيا ، وطفنا بها فى الشوارع نصيح : "إيدن آهو ! .. إيدن آهو .. !" . ثم أحرقناها وأخذنا ندور حولها ونكح من الدخان . وجلسنا أمام دكان أم ميلاد .. كان معى عشرة أولاد والبنت .. اشتريت لكل واحد نبوت الغفير ، وقلت لأم ميلاد:

قيديهم على حساب عمى سيد أحمد ...

كان جدى يشترى الجريدة يومياً ، وكنت أتفرج على الصور وأقرأ بعض العناوين . ورأيت صورة جمال عبد الناصر يخطب فى الجامع الأزهر . وبعد أن انتهى الأولاد من أكل نبوت الغفير ، وقفت على الزلطة السوداء الكبيرة أمام بيت (أبو الشحات) ، فصرت أطول من العيال كثيراً ، وأخذ صوتى يعلو ، ويداى تصعدان وتهبطان ، وأصبح : سنقاتل .. سنقاتل ! . والأولاد يصفقون ، حتى خرج أبو الشحات ووراءه كلبه

الضخم فجرينا إلى بيوتنا .

قال أبي : أنظر .. هذه صورتي ، وفيها الشريطان على ذراعي ، وعلى رأسي البيريه الأحمر .. بوليس حربي .. وهذه هي الحقيبة الكبيرة التي فزت بها في المسابقة العسكرية وسلمها لي عبد الحكيم عامر بنفسه .. هل تذكر ؟ .. كنت تقرِّب إليك أحد أصحابك وسميته عبد الحكيم !

وكنت محرجاً ، لأن الأشياء بدأت تتمدد وتحتل أرضية الغرفة وتغطي السرير والطاولة . وكنت واثقاً من أنها غرفة غريبة عليَّ . لم يكن في أي بيت لنا غرفة بهذا النظام عامرة بالأثاث .. لقد أحلناها إلى فوضى بهذه الأشياء التي يصر أبي على العودة إلى سحبها من صندوقه ..

قال : كان خطك دائماً جميلاً .. انظر .. كراسة الانشاء .. الصف الخامس .. مدرسة الجمعية السنية لتحفيظ القرآن الكريم .. إقرأ بنفسك هذا الموضوع : ماذا تريد أن تصبح في المستقبل ؟ . أليس هذا هو خطك ؟. قل لنا ماذا كتبت . مثلي الأعلى في الوطنية الرئيس العظيم جمال عبد الناصر . وعندما أكبر ، أحب أن أكون رئيساً مثل جمال عبد الناصر ! .

وكانت هناك مجموعة من الصور ، في الزي العسكري ، وفي الزي المدني ، وعليها توقيعات كان الأولاد يصدقون - لأنني كنت موقناً - أنه خطها بقلمه خصيصاً من أجلي . صور كثيرة ، ليست لعبد الناصر فقط ، وإنما أيضاً لأم كلثوم وعبد الحليم وكمال الشناوي والمواطن العربي الأول شكري القوتلي .

لست أدري كيف تمكن أبي من صون كل هذه الأوراق والصور من

الصراصير والفئران التى كانت تجرى فى شقتنا المعتمة بالدور الأرضى .
كان أكثر الموجودات تضرراً كتا ب بهت غلافه ولم تسلم حوافه من الحشرات.. التصقت بعض صفحاته واسودت بتأثير الرطوبة والفطر .. خطوط تحت سطور عديدة .. ملاحظات فى هوامش معظم الصفحات .. والأستاذ "متّى" ، ناظر النيل الإعدادية ينقلنا بنفسه فى عربته المتهالكة لنقابل المدارس الأخرى فى مسابقة الميثاق الوطنى .

أعطانى أبى مجموعة من الأوراق ، وقال : هذه نصوص أغانى .. لم يكن لدينا جهاز تسجيل ..سجلتها بخطك وقت أن كان عبد الحليم يغنيها فى الحفلات . وكنت أسرق المذياع الصغير ، وأغلق الباب ، وأسهر لأسمع عبد الحليم يغنى : قلنا ح نبنى وأدى إحنا بنينا السد العالى .. يا حبايب بالسلامة .. يا جمال يا حبيب الملايين .. نفوت على الصحرا تخضر . وكنت تنهرنى وتمنعنى وتقول : شوية عوالم يصفقون ويهللون والناس حالها بالبلا ! .

وكانت الكلمات تصنع عيداً .. ضوءاً خلاباً أراه ينتشر أمام عينىّ ويجدل رؤى ووعوداً قابلة للتصديق . وتنام أنت مرهقاً ، وأسهر أنا للفرحة فى صوت حليم ، وأقول كيف استطاع صلاح جاهين أن ينظر فى داخلى وينقل .. وأنسى العشاء شبه الدائم من الفول المدمس أو البطاطس المسلوقة .

نعم .. كنت قاسياً مثلما كان جدى معك قاسياً . ولم ترحم فرحتى يوم

أن أنقذت بناء السد العالى من التعطل . كانوا يسابقون الزمن ويضعون كل يوم لافتة جديدة مكتوب عليها عدد الأيام المتبقية . وحين علمت أن التوربينات سوف تمر فى ترعة المحمودية توقعت أن يصير اليوم عيداً فى غيط العنب . كا ن يجب أن يلغى اليوم الدراسى ، ويخرج كل تلاميذ المدارس إلى ضفتى المحمودية ليكونوا فى استقبال معدات السد وهى تخرج من الميناء فى الصنادل التى تحملها إلى النيل ، جنوباً إلى أسوان . قلت لك إننى ذهبت لأنه حدث لن يتكرر . أغلقوا الكوبرى . ومرت الصنادل تجرها القاطرات وعيناى تمسحان كل ما يمر أمامى . هذه القطع المعدنية الضخمة جزء من أيامى القادمة . لدىَّ أشد إحساس فى الوجود بتملكها . وطال الوقت ، وانتهى النهار مع تعطل آخر قاطرة . أسرعت إلى موقعها . كان العمال فى حيرة ، واحتاجوا إلى مسبك يصنع لهم جزءاً معطوباً فى الماكينة . لم يجدوا غيرى دليلاً . وعدت بعد أن دارت القاطرة لتلحق بالركب المسافر جنوباً . كنت أدخل البيت معتزاً بمشاركتى فى مسئولية البناء ، ولكن إهانتك لى وإصرارك على ضربى بالعصا هدما بنائى الشامخ .

ولم تكن تصدقنى فى كل المرات التى جئت إليكم فيها وكلى بهجة ، فقد رأيته ! .

فى أول يوم لى بالعباسية الثانوية ، رأيته فى ميدان محطة مصر . فجأة ، وقعت عيناى على نافذة سيارة سوداء مغطاة بالستائر ، وكانت تمر قريبة منى جداً ، وكانت بطيئة .. وكان جزء من وجهه يطل من فرجة بين ستائر

المقعد الخلفى ..جزء من الوجه ، ولحظات معدودة .. ولكن ذلك كان كافياً جداً لأعرفه ،وأبتسم ، فيتسم ويأتينى من ملامحه الظاهرة ما يشبه الرجاء ألا أعلن عن وجوده في ذلك الميدان وسط الباعة الجائلين . وفى أجازة الصيف ، عند البرنسيسة ، على ترعة المحمودية فى محرم بك ، رأيته ، ولم أكن وحدى ... ظللت مدة طويلة منتظراً (فريال) ، ولم أره إلا بعد أن جاءت فلو كنت رأيته وأنا وحدى ، لصدقت أنا نفسى أننى ربما تهيأ لى .. خصوصاً وأن الجو هناك هادئ جداً ولا أحد يمر ، والأشجار عالية وكثيفة ومليئة بالعصافير ولم أكن أنا الذى أخترت المكان بل فريال . كانت تأتى إلى بيتنا لتحصل لأمها الأقساط الشهرية من ستى أم سعد . وكنت أذهب إلى سينما النيل فى كرموز وأشاهد أفلام ليلى مراد ، وكنت أقرأ روايات محمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعى ، فقلت لفريال أنا أحبك . وكنت جاداً .وظللت أقول لها ذلك ، ومعه كلام آخر كنت أجيد ترتيبه ، وكنت أنظر فى عينيها وأتكلم ، وكانت هى تضحك وتقول إنها لا تفهم هذا الكلام ، وفكت زرارين فى بلوزتها ، وأخذت كفى فأسكنتها بين نهديها ، وأراحت ظهرها إلى جزع الشجرة . بقيت كفى هناك ، وأنا فى حيرة ، وعيناى تتحركان فى ذعر بين فتحة البلوزة والطريق . وكانت تشجعنى وتقول لا تخف .. لا تخف .وكنت خائفاً ، لا أعرف ماذا أفعل بكفي . وكنت عرقاناً وأفكر فى مغادرة المكان ، خصوصاً بعد أن سمعت صوت محرك سيارة يقترب . كانت سيارة سوداء أيضاً ، ولكن بلا ستائر . وكان هو فى المقعد الخلفى وحده . نظر فى اتجاهنا . لم تكن فريال ظاهرة .

كانت المسافة تزيد عن عشرين متراً ، ولكن حدة بصرى فى ذلك الوقت مكنتنى من تمييز الابتسامة وتلويحة اليد . ولم أخبر أحداً ، لأنه كان علىّ أن أقدم تفسيراً لوجودى فى ذلك المكان المهجور .

وهل كان غريباً ، بعد واقعة البرنسيسة بشهر ، أن أراه فى احتفالات عيد الثورة ؟

كنت أقف على الرصيف بين حشد من الناس فى طريق الحرية . وكان فى عربة مكشوفة واقفاً يرد التحية .الطريق واسعة ، والفضاء خلفه وفوقه متسع ، وكان بنيانه العملاق يملأ ذلك الفراغ ، بينما السيارة تمشى فى الموكب متئدة . وكنت أصفق وأهتف له ككل من حولى . لم يكن فىّ شئ يميزنى عن الصف أو الصفين من البشر على الرصيف .. ولكنى متأكد من أن رأسه ، وهى تدور يميناً ويساراً ، طال التفاتها فى اتجاهى ، كأنما حدثته الذاكرة بأمرى للحظات .. كأنما كان ليتعجب من توالى لقاءاتنا .

لفت نظرى بين المتاع الذى لفظه الصندوق كيس أسود كبير . نفس الكيس بنفس المحتويات كأنها لم تلبس . إنها البدلة التى نلتها مع عضوية منظمة الشباب . كانت البدلة الوحيدة التى ارتديتها - خلاف ملابس الطفولة - قبل أن أضطر إلى تفصيل واحدة فى مناسبة خطبتى .

كانت الفرحة عامة فى الأسرة ، بل إن خالتى وخالى وأحد أعمامى جاءوا إلينا خصيصاً ليروها . وحين ذهبت بها - لأول مرة - إلى المدرسة العباسية ،وكنت فى الصف الثالث ، ظللت طول اليوم الدراسى محل

اهتمام كل من فى المدرسة ، حتى ناظر المدرسة ، استدعانى إلى مكتبه ليرانى فى بدلة المنظمة نسيت أن أقول أنها لم تكن بدلة فقط ، بل كان معها قميصها الأبيض وربطة العنق الرمادية وحذاء أسود برباط وجوربان . واحد فقط عاب عليها . كان منافسى فى انتخابات اتحاد طلاب المدرسة . نظر إلىّ فى لا مبالاة وقال إنها تشبه أردية السعاة فى البنوك والفنادق ، وهى تحمل شعار المنظمة على صدرها . كنت أعرف أنها الغيرة. وتعجبت ... كيف ، وهو المتحمس للفكر الاشتراكى مثلى ، يعيب على البدلة أنها تحمل شعار منظمة الشباب ؟

كنت آكل ، فى معسكرات الشباب ، طعاماً يشبه ما يقدم لنا فى البيت فى عيد الأضحى فقط .. أيام صيفية خالية من الضيق والقلق ..إقامة مجانية كاملة .وكانت العودة إلى البيت مؤسفة . وكنا نجلس فى صفوف أمام الرئيس ، وقد تدربنا على تصفيقة موحدة تنطلق بها أكفنا المتحمسة عند وقفات معينة فى أحاديثه . الوجوه والأجسام والأردية متشابهة . آلاف النقاط بنفس الدرجة من التوهج أو الانطفاء أمام عينى الرئيس . لم يكن ثمة أمل فى أن تقع عيناه علىّ وحدى ... ولا أعتقد أننى فكرت فى ذلك . وفى حلوان كانت سنوات قليلة قد مضت .. سنوات من الحزن والتخبط .. لم تكن هناك بذلات .. لم تكن هناك تصفيقات ذات إيقاع .. لم يكن يتحدث إلينا واقفاً فى بدلته ذات المنديل فى جيب الصدر . كان جالساً ، وكان الجو حاراً . وكان يستمع إلينا ويناقشنا . يدير الجلسة بنفسه وكنت أرفع يدى ، ولكنه - حتى انفض الاجتماع - لم يدعنى للكلام . كان لدىّ

- لابد - ما أقـوله . كنت أكتب الشعر وأخـتلف كثيـراً مع أفراد التنظيم . كنت أدرك أنه يسبقـهم جميعاً ، وأنهم يـلهثون خلفه ، ومعظمـهم كيانات ظاهرية خاوية تجيد الابتسام والتكتم ، ولا تحسن إنشاء جملتين خاليتين من الأخطاء ، ولا رصيد لديها إلا فقرات محفوظة من الميثاق وبيان ٣٠ مارس وآخر خطبة للرئيس . وكنت أواجههم بذلك ، فيخافوننى وينتظرون أقرب فرصة للتخلص من تكبرى وادعاء اتى الثقافيـة . أشياء كثيرة أعددتها جيداً لأعرضـها عليه ، وعـدت بها إلى سريرى ، دون أن أمـر بالمطعم . فى فمى مرارة حـقيـقية ، وفـى صدرى خليط من العـتاب عليه والحـزن من أجله . كنت مرهقاً وأريد أن أبكى ، وأن أتكلم وأنقل إليـه خوفى وحزنى . وكان جسدى نائماً ، ولكنى بقيت متمسكاً بحقى فى الجزع من أجله ومن أجلنا. فلمـا رأيتـه قـلت له : يا ريس .. أنا خـائف عليـك .. أراك كـأنما تريد أن تموت. ضحك وقال : لا تخف يا رجب .. وعلى أى حال ، من سيبقى فى الدنيـا ؟ ! . قلت : يا ريس البناء لـم يكتمل .. يـخدعونك ، والجـدران لن تستمر بعدك ! .. الفطر كـامن .. وأخشى أن تقتلع غرساتك عند أول ريح قـوية . قـال : لا تـبـالغ .. والبـركـة فـيـك ! .. الآن .. سـأنام ! . وتمدد ، فصـرخت لا .. لا تفـعل .. قم .. سيـغلقون عليك التـابوت ! . ولكنه لم يكن ليسمعنى .. كان خلف الغطاء الثقيل .

قـال أبى : خذ .. هذه آخـر ما حـفظته من أشـيائك ! . وكـانت سـتـرة عسكرية مثقـوبة .. عرفتها . تذكرت حمـاقتى حين فكرت فى نشرها على حـائط من سلك شـائك لتـجف . كنت فـى فصـيلة لخـدمـة الجـبـهـة فى

الاسماعيلية .. طرحتها على السلك ، واستدرت لأنزل إلى الخندق ، فمرت رصاصة القناص أمام وجهى لتستقر فى صدر السترة . لم أمت ، ولكنه يقول : إنها كانت نهايتك ! . وهو يعرف تماماً أننى تخرجت وصرت جندياً ، وكابد هو بنفسه ، مع أمى ، القلق علىّ ، فى حصار الجيش الثالث . ولكنه يصر ، ويطل داخل الصندوق الذى تغير شكله ، واتسعت فوهته ، ويقول : انظر .. لقد أنزلتك بنفسي .. وكانت أشياؤك معك .. فما الذى تريد إثباته ؟ . وتقدمت خطوة لأنظر فى قاع الصندوق . كان القاع بعيداً ، مغطى بالتراب الناعم .. وفى اللحظات التى استغرقتها إطلالتى إلى الفراغ الشحيح الضوء ، كنت متوجساً ، وأكاد أحس باليد المتسللة لتدفعنى إلى القاع .

خلل

فاجأني طابق جديد ، يعلو الطابق الأرضى .

وأدهشنى أن الفيلا ، التى اختزنتها الذاكرة منزوية فى ذلك الموقع البعيد منطفئة في لون الطوب الأحمر ، والسياج الحديدى الصدئ ، محاطة بالرمال ، بلا تفاصيل معمارية - ارتفعت واتخذت ملامح القصور ، وعمرت بالتشكيلات والفراغات والألوان ، حتى أننى سألت ، لاتأكد من مقصدى قبل أن أقترب من الباب .

نظر إلىّ حارس الفيلا المجاورة بارتياب ، وأنا أخبره بأننى ابن الفقيد . وعاد الرجل - بعد أن فتحت باب حظيرة السيارات - يستطلع ، واقترب أكثر ، يتفحصنى ، وأنا حائر بين فضوله المتشكك والمفاجأة التى كانت تنتظرنى فى ذلك المكان المظلم الرطب ... ثلاث سيارات ، لم أستطع - لشدة قدمها - تحديد هوياتها . وكان الرجل مستمراً فى التحديق إلى وجهى ، وكان يتمتم : سبحان الله .. سبحان الله !.

فقلت إنه يحاول استثمار الموقف ، كالعادة ، من أجل النقود ، أو ربما

كان يحاول أن يعبر عن مواساة حقيقية . أعطيته بعض النقود . أخذها وانصرف يواصل تمتماته .

شعرت بالحزن ، لأول مرة منذ ملابسات الوفاة ، حين دخلت من الباب الخارجي فداهمني تعدد التفاصيل في المساحة الكبيرة المحيطة بالمبنى .. كنت أحسبها شريطاً ضيقاً يلي السور ، ويكفي - بالكاد - لغرس صف من الأشجار ، ولكنني وجدت حديقة متنوعة المزروعات تحيط بالفيلا ، وحمام سباحة كلوي الشكل ، نعطن ماؤه ، وحوله مظلة ومقاعد خيزرانية بيضاء .

صعدت الدرجات الرخامية القليلة ، وفتحت الباب الخشبي الثقيل ، فاستقبلتني قاعة غنية بالأثاث والمفروشات والستائر والثريات والجداريات.

وجدت حجرة النوم القديمة كما هي ، لم يغير موقعها ، وإن تبدلت الموبيليا والمفروشات ، وطغت عليها ألوان صاخبة . وعاودني شعور بالأسف ، مختلطاً بالحزن ، حين اكتشفت - للحظات - أنني لم أكن إيجابياً أمام عناده ، وتركته يختار عزلته ، ويسقط ميتاً وهو يتجول في سوق للمهملات ، ويبقى جثمانه مجهولاً في ثلاجة المستشفى ، حتى عدت .

وكانت خطتي أن ألقي نظرة على الطابق العلوي ، قبل أن أغادر الفيلا. كانت القاعة ، على وضعها القديم ، تبدو كصالة كبيرة في شقة ، لا صلة لها بما فوقها . هل ثمة سلم بالخارج ؟ خرجت لأتأكد من أنني خلال

تفقدى للحديقة لم أجد سلماً للطابق العلوى . كانت النوافذ العليا مغلقة، كأنها لم تفتح من قبل .

عدت إلى القاعة متمهلاً ، أحاول - من خلال خبرتى الطويلة به - أن أصل إلى مرمى تفكيره فى إضافة طابق - لم تكن له به حاجة أو ضرورة - ويسد الطريق إليه ، فيتركه لى بلا سلم ! . كأنه يرسم لغزاً لم يهتم بأن يحكيه لى فى زمن مضى . ولما أضفت الأمر إلى سلسلة ما صدر منه فى السنوات الأخيرة من أمور مستهجنة ، توارت الحيرة . وجلست أشعل سيجارتى ، تشاغلنى فكرة طارئة ، أن أحتفظ بالفيلا ، وأقيم لها سلماً ، وأستبعد فكرة البيع . كان لدىّ - فى الأيام القليلة الماضية - هاجس غامض يتحدى إرادتى فى التخلص منها ، بالرغم من أننى كنت أردد أمام الجميع : ما حاجتى إلى مبنى كئيب صممه هو وبناه بنفسه ؟!

... لنتغاضى عن عيب السلم الداخلى ، وعن أشياء أخرى لا تحتاج إلا لمراجعات بسيطة : صراحة الألوان وزعيقها .. تداخل المكونات وازدحامها...

واجتذبتنى حجرة النوم لأتوقف أمام محتوياتها مرة ثانية .. خليط من قطع الأثاث ، متنافرة ، مغيبة فى غيمة من غموض . استقبلنى مقعد خيزرانى هزاز ، يميل ظهره المشغول بالخوص إلى الأمام ، كأنما كفّ عن الحركة حالاً . وفى الصدارة ، سرير معدنى أسود ، تتميز شخصيته بأعمدته الاسطوانية المحلاة بوصلات من النحاس الأصفر له لمعة طازجة ، وشباك

يواجه الداخل ، يرتفع عن مستوى الفراش كثيراً ، ونغطية مشغولات من القصب تشبه الأرابيسك ، وتنسدل عليه شرائط من أقمشة رقيقة ، فيما يشبه الإهمال . وجعلني ذلك كله أنقبض ، كأنني أواجه ضريحاً .

دارت عيناى مع الحوائط الأربعة ، وتوقفتا أمام المغطى تماماً بستارة ثقيلة داكنة الزرقة ، فيها تموج مضطرب ، كأنها أعدت للاختباء .. فهل يكون وراءها منفذ إلى السلم الغائب ؟

أزحتها عند المنتصف ، فاستجابت في سهولة ، وكشفت إطاراً كبيراً لصورة ضوئية لفخذين كجبلين يملآن وجه الصورة ويخفيان بقية تفاصيل الأنثى خلفهما .

كنت أهز رأسى ، محاولاً كبح انفجار الضحك ، ولعلنى كنت أردد بعض الكلمات مأخوذاً بما كانت تخبئه الستارة . ولكنى لم أتحرك من مكانى ، ولم تكتف عيناى بالنظرة التى أكتشفت ، بل إننى جلست أمام الصورة ، وخليط من المشاعر - بينها البهجة - يجعلنى أبتسم وأستشعر وهجاً دفيئاً لم أفلح فى التنصل منه أو فى محاذرته ، ونتوءات من المتعة تحتشد تغالب توجهات الوأد .

وكان فادحاً أن ينتهى كل ذلك ، منتهكاً بالصوت القبيح الصادر عند فتحة الباب :

أهلاً .. يا باشا !

لم يكن صوتها ، فقط ، هو القبيح . بها ما يشبه التحفز . كانت تقترب

لترانى أكثر . لم أسأل من أنت وكيف دخلت ، لأن دهشتى كانت أكبر .. كانت فى رداء الحمام ، وشعرها مبلل . وكانت هى التى قالت : ما أشد شبهك به ! فأدركت أنها تعرفه . قالت : تأخرت كثيراً .. كنت فى انتظارك!

وكان يجب أن أعرف : هل أعرفك ؟

خطت ، مطمئنة ، إلى خلف ساتر فى الحجرة المتسعة ، وضحكت فى ثقة ، تظهر أنوثة خافية تمطت فى رنين وطول ذيل الضحكة . قالت وهى تبدل ملابسها : عرفتنى قبل أن ترانى .. ! وامتد إصبعها يشير إلى الصورة، وقالت : كنت تتأمل فىَّ منذ لحظات !

وعادت تضحك .

قلت : لا يمكن أن تكونى زوجته !

أسرعت تحدد ، فى بساطة : بل محظيته !

وكانت تحتاج إلى تحديد أكثر : أيهن ؟

ردت ، بنفس الهدوء والبساطة ، وإن شابهما درجة من تحد : عرفتهن كلهن من كن قبلى ، ومن مررن بى .. ولكننى أنا التى بقيت !

وخرجت من الخلف الساتر فى ملابسها ، لتشعل سيجارة ، وتتحرك خطوات قليلة لتقف فى مواجهتى ، وكنت لا أزال محتفظاً بجلستى ، وقالت وهى تمثل انحناءة : لأكون فى شرف استقبالكم !

قدمت لى سيجارة . رفضتها ، وأشعلت واحدة من علبتي ، خرجت بها إلى القاعة . جلست ، وكانت فى إثرى ، تحتل مقعداً ، وترفع ساقاً فوق ساق . قالت : أنا أعرف عنك كل شئ ، وأنت لم تسألنى - حتى - عن اسمى !

استوقفنى ، للحظات ، فكرة أنها ، فى مجملها ، ليست بشرية .. كيف، ومن أين تواجدت فجأة ، وتخللت - هكذا - كل هذه المساحة ، هوناً ، وتجلس أمامى مسترخية تسحب أنفاس الدخان

قلت : اسمك ستحتفظين به ، لأننى سأراك ، بعد دقائق ، لآخر مرة ، وأنت تحملين حقائبك مغادرة !

لم يبد على وجهها أنها انفعلت . رفعت يدها التى تتعلق السيجارة بين إصبعين منها ، وقامت متشامخة ، متهادية ، لتواجهنى واقفة ، ثم تدور حول مقعدى ، وتعبث أصابعها بشعرى . تساءلت فى ليونة : أهكذا يخاطب الأولاد أمهاتهم ؟

تلقت لطمتى الخاطفة ثابتة ، كأنها توقعتها . ولم يتأثر صوتها ، بنفس الليونة واصلت : أو ، من فى مكانة أمهاتهم ؟!

لطمتها ثانية . صاحت : فى خدمة فراش عجوز عربيد .. على الأقل !

لطمتها ثالثة ، ثم تتالت لطمانى ، حتى انهارت . سقطت تحت قدمىّ ، وقامت تتشبث بساقى ، وفى جسمها انتفاضات . رفستها أتخلص من تعلقها . أنصال أظافرها تصل إلى جلدى . تحركت أبتعد ، لأخرج من

دائرة الهـوس ظلت مستـحوزة على ساقىً ، وأوشك قمـاش بنطالى أن يتمـزق . كانت تزوم ، ورفعت إلىّ وجهـاً فيه نشـوة مرعبة . أفلتت سـاقاً لتشير بيدها إلى حائط قـريب . غاب عنى ، وسط ازدحام المكان بالأشياء ، أن ألتفت إلى مجموعة من السياط معلقة على الحائط وكانت يدها لاتزال ممدودة إلى الأمام ، وسبابتها تشيـر إلى حلقة السياط يتوسطها رأس غزال ، ووجهها القانى يعرق ، وعيناها شبه مغمضتين ، ترتفعان إلىً فى رجاء .

لم أكن غيـر مدرك .. كنت غيـر مصدق ، واكتنـفنى الذهول تماماً وأنا أراها تدخل فى مـوجة صراخ ، وتـفلتنى ، وتشق ثوبها بيـديها ، فـيتـعرى جسمها المكتوى بخطوط طولية داكنة .

تركت نفسى أسقط فى أقرب مقعد ، أخـفق فى تثبيط كهارب الانفعال فى رأس ، وبى خـوف شديد لخلو جيبى من شـريط حبـات الدواء . كان الواجب أن أخفف من توترى فألجأ إلى اسـترخاء طويل ، ولكن ذلك كان مسـتحيلاً أمام الحقيـقة الماثلة أمامى فى دائرة السياط على الجـدار ، والجسد الممزق فوق السجادة .

صحت فـيها أن تنهض وتمضى من أمـامى . تحركت ، أخيـراً ، وقامت متبـاطئة ، لترتمى – مهيـضة – فى مقعد . تماسكت ، بعـد قليل ، واعتذرت أولاً ، ثم قالت : أرأيت ؟!

قلت : لا معنى لأى كلام الآن .. قومى وارحلى

قالت : لن أرحل . قلت ، ضجـراً : أرجوك . هذا يكفى .. لا أريد أن

أراك هنا .. خذى ما تشائين وغادرينى ..

اعتدلت ، غيـر عابئة بعريها : لم أنتظر لتـعطينى أنت .. لقد أخذت ! . ولما وجدتنى أنظر فى عينيها متشككاً ، واصلت : نعم .. أنت الآن ضيفى ، فى مسكنى !

قلت : رأيت شذوذك ، وجنونك - الآن - يتأكد لى !

ردت : هذا ما فعله بى العجوز .. ألا أستحق ما يقابله ؟

حاولت أن أقول هادئاً : هذا بيتى .. أنا وريثه الوحيد ..

فصاحت هى : وأنا أقول لك : أنا مالكة هذا المسكن .. وأحتفظ لك بما لا يخصنى : الدور العلوى !

كانت واثقة ، وعادت إلى التـدخين ، وأكدت : لدىّ الأوراق موثقة .. والمحامى موجود ، يمكنك مراجعته ..

غرقت فى صمت بئر المفاجأة ، أحـمل رأسى المتثاقل بين كفىّ ، أحدق فى امرأة شبـه عارية ، تجلس أمامى راسخة ، وتصنع سـحابات من الدخان وسحابات أخرى ، غير مرئية ، من روائح نفاذة لهورمونات الأنثى .

تراجعت ، بصعـوبة ، عن التدهلز فيها ، وشـاركت هى ، بصوتها ، فى إبعادى عن بقعة تتحرك رمالها .. قالت :

- "حين رأيتك تنظر فى صورتى ، أردتك !

قلت ، مغلقاً بوابة الريح الصافرة : تأكدى أننى سأراجع كل شئ ، ولن

أدعك تأخذين كل شئ .. لمجرد ..

قالت : تأكد أن القسمة عادلة .. ستضيف أرصدته إلى أرصدتك .. ونصيبك هنا فى انتظارك ..

وأشارت إلى الطابق العلوى ...

قلت ، أنهى مواجهتها : أين السلم الصاعد إليه ...

انقلبت مقهقهة ، وأخذت تسعل ، ولما هدأت ، أخرجت مفتاحاً من جيب بفستانها الممزق ، ألقت به إلىّ ، ثم قامت وقالت : اتبعنى . فقمت وتبعتها . عادت إلى القهقهة ونحن نغادر القاعة . دخلت إلى حجرة النوم ، وأزاحت ستاراً ثقيلاً ، فظهر باب مغلق . قالت : خذ طريقك إلى نصيبك من ميراث أبيك !

غادرت الحجرة ، وتركتنى أفتح الباب وأدخل إلى ممر مظلم ثقيل الهواء . تحسست طريقى حتى عثرت على بداية السلم . سمعت صياحها : سأنير لك المكان . ورأيت السلم ، وكنت عند منتصفه . أكملت إلى أعلى. وصلت إلى بداية ممر علوى ، سرت فيه ، دار بى ، وانتهى عند السلم . كان الممر نظيفاً ، مفروشاً بالموكيت الأحمر ، جيد الإضاءة ، تفتح فيه حجرات متراصة ، كطابق فى فندق .

تشوشت حين حاولت اصطياد فكرة واضحة تربط بين ما أرى ومتالية الأحداث التى سبقت صعودى إلى هذا المكان الصامت . أبواب مغلقة ،

«««

وعلامة استفهام ضخمة ، وحيرة وتخبط ، واقتراب من مجال الفوضى .
لماذا أعطانى هذه الحجرات المغلقة ، بهذا السلم الخفى ؟

امسكت بمقبض أقرب حجرة إلىّ . فتحت الباب ، وسمعت - فى نفس الوقت - قهقهاتها تتصاعد عندى .. كأنها ترصد تحركاتى . ونسيت أمر القهقهة وأنا أحاول أن أعبر ، مع عينىّ ، هذا الترتيب السخيف : أكوام من المخلفات ؟!

أسرعت إلى الحجرة التالية : أكوام من أنواع أخرى من المهملات ! كانت بقايا الأشياء تملأ كل الحجرات .. مصنفة ، متراصة ، معدة للعرض ، لا تراكب ولا عناكب ، وإضاءات قوية تعطى لهذه التجمعات الوحشية من سقط المتاع والمعدومات وجوداً راسخاً .. كان حقيقة ، إذن ، ما تردد عن شغفه الشديد بارتياد سوق المخلفات فى كل يوم جمعة !

تسللت الهزيمة إلى قلبى . خلفت - مطعوناً - الأبواب مفتحة ، وأخذت قدماى تتحسان درجات السلم ، حتى انسحب الضوء عند آخر درجة .

توقفت فى الممر المظلم راغباً فى البكاء ، فاختلج صدرى وبكيت . ملأت الدموع عينى ، وأنا أدخل حجرة النوم ، وراوغتنى ستائر ثقيلة وأنا أبحث عن باب الخروج . سمعتها تسألنى عن رأيى . ولم أكن أريد أن أتكلم أو أراها . سألت ، أيضاً : الا تستريح قليلاً ؟ . وأخذت تدعونى إليها . وكنت - ضائقاً - قد بدأت أزيح طبقات من الستائر بحثاً عن باب

يأخذنى بعيداً عنها . كانت الستائر تتثاقل ، وكانت ألوانها الصريحة تتوالى فى قبح ، والباب لا يظهر لى ، حتى أننى صرت فى سجن من الستائر المخادعة ، لا تتمزق ولا تنتهى ، بل أخذت - أخيراً - تزحف من الجهات الأربع ، تطاردنى - فى تؤدة - إلى مركز مستطيل يشغله سرير معدنى مرتفع يشبه الضريح .

اركبوا درّاجاتكم !!

ظهيرة شتوية رائقة .

أرصفة المحطة شبه خالية ، وعربات الترام تزحف داخلة أو تتأهب للمغادرة فى تكاسل . تيارات من الهواء المحتمل البرودة تتصارع فى الميدان ، ولكن فى تقطع ، والشمس طيبة ، تغرى المارة المعدودين بالتلكؤ وهم يعبرون الميدان . قضيت الصلاة ، فبدأ توافد المصلين من جامع القائد إبراهيم . فتحت الأبواب النازلة إلى الجمعية الاستهلاكية تحت أرض الميدان ، وارتفعت أصوات بعض باعة الصحف والباعة الجائلين الذين يتاجرون فى المستلزمات النسائية الصغيرة . جرت سيارات أكثر حول الميدان . كفّت الشمس عن تدفئة المكان .. فماذا يدعونى إلى الاستمرار فى السكون إلى ذلك التآلف المشرق الذى تفكك وتساقط ؟ .

دسست صحيفتي في جيب معطفي الداخلي ، وهممت بأن أترك صديقي بائع الصحف العجوز إلى مقهاي المطلة على الميناء الشرقية ، لآخذ فنجان قهوة الجمعة ، وأثرثر مع من يتصادف وجوده في المقهى من المعارف والأصدقاء خطوات قليلة ، فكرت خلالها في نوع الفاكهة الذى طلبت زوجتي مني شراءه ،وداهمني خوف جعلني أتخشب في مكاني .. مرّت بجانبي ، حتى أن مقودها لامس معطفي ..

درّاجة في الميدان !

كان يمكن أن تصطدم بي فتطرحني أرضاً .. كان يمكن أن تكسر بعض عظامي .. إنها - على الأقل - قد روّعتني ، واقتحمت عليّ حدود اطمئناني إلى الأمور المحكومة بالروتين والاعتياد .

لم أكن وحيداً في ذلك . اشترك كثيرون في موجة الاضطراب التي دفعت بها الدراجة إلى الميدان . وكنت من قلة تمكن منهم رد الفعل ، فالتفتوا يستنكرون ويحاولون أن يوقعوا براكب الدراجة ما يملكون من عقاب .

صحت : يا مخبول ! .. يا بائس !

ولكنه لم يكن ليسمعني . كان يكاد يختفي وسط المارين والواقفين بميدان محطة الرمل بعد صلاة الجمعة . ولكن حالة السخط لم تكن عامة . كان بعض الرجال والأولاد يضحكون ويشيرون إلى راكب الدراجة ، ويصيحون بما يؤكد معرفتهم به ، واستطعت أن أميز في صياحهم مطالبتهم

له بأن يغني . وكان هو سـادراً في إثارة الفزع ، حتى تحول الميـدان إلى شبه دائرة ، تراجع البشر إلى حدود محيطها ،وأخلوا القلب لراكب الدراجة .

رأيت وجهه وهـو يمر بالموقع الذي كنت أقف فيه . لم تكن فيـه ملامح المختلين ، وكانت ابتسـامته طبيعية .. كان وجـهه كله مملوءاً بالفرح ، وكان يلوحّ ، كزعيم بيده ، وأحياناً يترك المقـود تماماً ليلوّح بيديه معاً ، وخصوصاً عندما يمر بالمواقع التي يتجمع فيها مريدوه الذين كانوا لا يكفون عن مناداته باسمه ليغني .

لم أعتن بالانصـات إلى الأصـوات المتـداخلة لأتـبين الاسم . ولم يكن يهمني أن أعـرف اسم هذا الذي يطغى بمركـبته ويحـيل الميدان إلى سـاحة سيرك .

لا مناص من الاعتـراف بأن سلوكي كان مـختلفاً عن المـعتاد تجـاه مثل هذه الوقائع .. فقد ظللت واقفاً أتابع المشهـد المستمر ، متعللاً – في البداية – بمراقـبة سلوك البشـر إزاء مصـدر للفوضى ، ونسـيت المقـهى والقهـوة وفاكهة زوجتي .

كان قـد بدأ يبالغ في ألـعابه ، فيـصعـد بقدمـيه على مـقعـد الدراجة ، وجسـمه مـقوّس فـوقهـا . وكان من السـهل عليّ تماماً أن أركـز اهتمـامي بملامح وجـهه المريـحة ، والعـينين المطمـئنتين المطلتين على العـالم باتسـاع غريب .

تزايد عـدد المتـابعين ، وكـان فـيـهم ممن يراعـون أناقـتـهم الشـتـوية ،

ويحرصون – مثلي – على انتقاء ربطة العنق ، حتى فى جولة نهار الجمعة . وكان عدد الوجوه المبتسمة يرتفع . واكتشفت أننى أبذل جهداً لأمنع ابتسامتى ، متحصناً بأفكارى الثابتة عن اللاشعور الجمعى . وبمجرد أن اكتشفت ذلك ابتسمت ، ونسربت من ذاكرتى دراجة تتهادى فى شارع شبه مظلم قرب فندق (نيوكتراكت) ، وعليها اثنان : فتى وفتاة . الفتى يقود بمهارة ، والفتاة إلى الخلف منه ، تحيط خصره بذراعيها ، وتحط بجانب رأسها على صفحة ظهره . دأبا على انتزاع نفسيهما من المجموعة ، وأمضيا ليالى الرحلة الشتوية يجوبان شوارع أسوان ، المجهولة لهما ، فوق دراجة .

ثم وجدتنى أتسلل ، فى منامتى ، نازلاً درجات السلم القليلة .. حجرة بئر السلم ، والمفتاح يعالج الباب فى مشقة ، ثم المصباح اليدوى يمسح أركان الحجرة المظلمة . ها هى ..كما هى .. تستند إلى الجدار البعيد وقد فرغ إطاراها المطاطيان من الهواء ، والسلاسل تلتف حول أسلاك الإطار الخلفى تكبله إلى عمود حديدى بارز من الجدار . الولد يقترب من الشباب ويلح فى طلبه لها ، وأنا أتشبث بحمايتى له منها .. أنا لا أرى إلا شوارع تغص بمحركات مجنونة . أستغل سلطتى لأحرمه منها ، ولكن السنوات التى يتقدمها تجعله يزداد إصراراً ، وأضبطه مرات عديدة فى حجرة بئر السلم يتفحصها ويحاول تخليصها . أفهمته أكثر من مرةً أنها لم تعد تصلح للركوب ، وقد تسرب الصدأ إلى قلبها . قال : أعطنى فرصة وسترى !. حماس غريب وأفكار واضحة سليمة كفيلة بأن تعيدها إلى هيئتها الأولى . قال أيضاً : ستكون نموذجاً فريداً بين دراجات المدينة ..

سأعطيها نفس اللون الذى كان لها أيام كنت تركبها : الأبيض ! . وكان يعرف أنه يداعب مواطن الضعف فى قضيتى . أنا الذى حدثته عنها وهو صغير . أنا الذى قلت له إن أبى أهداها لى ، تنفيذاً لوصية أبيه الذى فقد وظيفة موزع برقيات لأنه لم يكن يملك مؤهلاتها : قيادة الدراجة ! يقول الولد ، يتهمنى : لكن جدى الأكبر أوصى لى بها ! . أعود متمسكاً برفضى ، عابساً ، ويقينى أنه سيفلح، ذات يوم ، فى إخراجها من الحجرة المظلمة لتجرى بين صفوف السيارات فى طرقات المدينة المشبعة بالأتربة والعوادم .

لا تخفى علىّ مهارته . تبدو - تحته - امتداداً له ، فتتسرب إليها صفة الحياة . كان يتوقف فوقها ، ويجبرها على الاستسلام فى اتزان يدوم لحظات قبل أن يعاود الحركة بها فى الميدان .

أصبحت أخشى أن تكون جولات طفولته الأولى لاتزال عالقة بذاكرته، فيستردها ليثبت أنه جزء من تاريخ الدراجة الأسيرة .

لماذا أصبحت أبتعد عن تلك الأيام الجميلة ؟

لم تمر بى متعة أصفى من جولاتى بها فى الطريق الموازية لترعة المحمودية . وقبل أن أتركها - دون قيد - فى الدكان أسفل بيتنا القديم فى غيط العنب ، كنت أمسح كل جزء فيها لأزيل دقائق الغبار ، وألمّع الجرس المعدنى ، وأضع الشحم على التروس والجنزير . وكانت طقوس عنايتى بها امتداداً للمتعة التى تهبها لى .

هل صحيح أننى فقدت استعدادى للاستمتاع ؟

من الذى واجهنى بهذه الدرجة من الحدة ؟

لماذا - إذن - لا تريده أن يتذكر مشاركتك بعض سياحاتك فوقها ؟ .. حدائق الشلالات - الكورنيش - قصر رأس التين - حديقة الحيوان - مباريات كرة القدم فى ملعب البلدية .

خلعت - فيما بعد ، متعمداً - الكرسى الصغير الذى كان يجلس فوقه على الماسورة الأمامية الممتدة من كرسيك إلى عمود المقود . كنت تقود وتعلمه ألا يخاف . جاء دورك الآن لتخاف ، ولترى ، مع نظرات الأسف والأسى فى عينيه ، ما تفسره أحياناً بالضيق من وجلك ، وأحياناً بالإشفاق عليك .

بدأ الغناء ... صوت عريض بادى الفرح .

هم يعرفون جمال صوته ، فكانوا يطلبونه منذ دخل إلى الميدان بدراجته. أصابتنى الحيرة ، ثم الضيق ، وأنا أحاول تتبع معنى لما يغنى . لغة أقرب إلى الهندية . يغنى بلغة سرية تحمل رموزها حمائم صوته . لا يبدو أن جمهوره يطرب لغنائه ،ولكنهم يلبون دعوة الحمائم إلى شلالات مجهولة من النشوة .

كان صديقى بائع الصحف العجوز يغنى . انتقلت إليه عدوى السعادة . وكان يردد ، من خلال ابتسامة طيبة : إنه المغنى .. إنه المغنى !!.

كان هو أقرب آدمى يمكن أن أسأله عن معنى الكلمات . ولكنى أعلم

تماماً أنهـا بلا مـعنى . فلمـاذا أسـأله ؟ . ثم إننى صـرت أكـثر اسـتجـابة للصوت، ويمكننى أن أتنازل الآن عن التشبث بأن تكون الكلمات واضحة ذات دلالة .

وكان راكب الدراجة يخص العجـوز بإيماءة كلما مرّ بركنه فى الميدان ، فيـبتسم العجـوز كالأطفال ، فـهل تراه - هكذا - يهتم بالتفكيـر فى سؤال كسؤالى ؟ . ولكنى فوجئت بأن بائع الصحف العجوز كان ، مثلى ، عاجزاً عن تبين ما يقـول راكب الدراجة ، إذ لكزنى فى كتـفى وهو يلفت نظرى : إنه اليوم فى غير حالته الطبـيعية .. لماذا ترك الغناء الهندى ؟! ... ماذا يقول المهووس ؟! .

نجح العجوز فى زحزحتى ، أكثر ، إلى بؤرة الاهتمام بالصوت .

كان المغنى يمد كل الحروف فى فوضى عجيبة . ألف ، ثم راء ثم كاف ، وباء طويلة مشتبكة بواو جماعة شديدة الامتداد . الآن ، اتضح فعل الأمر : اركبوا . وكان من السـهل - نسبياً - اكتشاف أن الكلمة الثانية : درّاجاتكم.

اركبوا درّاجاتكم !

وكانت الدعوة تستغرق لفة كاملة من أدائه الاستعراضى . سمعتها أكثر من مـرة قبل أن يتـزايد إيقـاع إلقائه ، ويزداد مـعـه وضوح الكلمـتين . ثم تزايدت سرعـة الدراجة ، وهو يردد دعوتـه فى إصرار غريب ، ويشـير إلى الناس بسـبـابتـه ، محـذراً أو مـؤكـداً . توقف المتـفـرجون عن المشـاركـة بالاستخفـاف . استوقفتهم كلمتا الدعـوة وعلامات الجد ، بل الرعب ، ثم

رنة الرجاء الدافئة فى صوته . ربما كان يبكى ، ولكنى لم أر دموعه ، بل فوجئت بالمشهد يتساقط فى حالة اضطراب شديد ، وأفراد من الشرطة يندفعون إلى راكب الدراجة ، فينتزعه أحدهم من دراجته ، ويقتادها آخر . ويتقدم الموكب خارجاً من الميدان ،والمغنى فى حالة من الاستسلام ، يكاد يختنق من شدة ضغط الجندى على أعلى قميصه . مروا ببائع الصحف ، فحياه المغنى : إيه يا عم السيد ! .. لك عندى ثمن صحيفة الأمس !.

ثم منحنى ابتسامة مع هزة رأس رقيقة ، وتوقف بين حراسه ، لحظات ، يسألنى :

- (هل تكون شاهدى ؟!) .

كان يمكن - تحت تأثير الدهشة - أن أعتقد أنه يحدث شخصاً غيرى .. شخصاً يعرفه ليكون معه بهذا الود ، ويطلب منه مثل هذا الطلب . ولكنى لم ألتفت حولى أو ورائى لأعرف إلى من - غيرى - يتحدث .. كنت موقناً من أنه يقصدنى أنا . وكنت مهتماً بملاحظة بطاقات صغيرة ملونة تغطى مساحات محدودة متناثرة من أرض الميدان ، ينحنى أفراد الجمهور يلتقطونها .. لم تظهر إلا بعد أن توقف العرض وقبض الشرطيون على الممثل الوحيد . ذكرنى رجل من الواقفين بجوارى ، فى حماس شديد ، بل فى غلظة :

- (لا تخذله .. لقد طلب عونك .. اذهب إليه قبل أن ينتهى بين أيديهم!) .

تخليت عن رغبتى فى التقاط بطاقة ، وأسـرعت وراء مجموعة الشرطة والمغنى . دخلـت وراءهم إلى نقطة الشـرطـة القـريـة التى تشبـه البـيت الزجاجى . كنت أسمعهم ، قبل دخولهم إلى النقطة ، يسبونه ، فلما دخلوا به ، بدأوا فى صفعه ، والضابط الصغير المسترخى خلف مكتبه لا يبدى أى اهتمام . أشار فى اتجاهى غير مبال . سألنى صف ضابط :

- (لماذا أنت هنا ؟) .

قلت : أنا معه .

انتفض الضابط يسأل : مع من ؟ .

قلت : مع هذا !

عاد يسأل : هل تعرفه ؟

قلت : نعم .. إنه المغنى .. راكب الدراجة !

تخلى الضابط عن كسله تماماً ، وسألنى فى حدة : من أنت بالضبط؟!

قلت : طلبنى فجئت معه !

خبط مكتبه بقبضته ، وزعق فىّ : من أنت ؟ .. أين هويتك ؟!

أخرجت بطاقة الهوية وأعطيتها له . تفحصها بـعناية ، ثم لانت لهجته نسبياً ، وهو يقدم لى البطاقة ، ويقـول : يا سيدى .. أنت رجل مـحترم .. هل تعرف هذا الإنسان ؟!.

قلت : كما قلت لك !

قال : هل تعرف أنه سارق ؟ .. اعتاد أن يسرق أى دراجة يجدها أمامه!

هل يعجبك ما يفعله ؟ .. إنه لا يكف عن إزعاجنا .. يوقف حال الناس ويعطل الدنيا !

نطق راكب الدراجة : أنا لا أسرق .. أنا لا أختفى بها .. ثم إننى أعيدها فى كل مرة !

سألنى الضابط : أنظر .. هل هذا منطق ؟!

واستمر راكب الدراجة : لن يتكرر هذا .. أعدك .. سأجد طريقى إلى دراجتى .. نعم .. لدىّ واحدة .. بيضاء .. محبوسة فى بئر السلم .. سأعرف كيف أتخطى الصعاب إليها .. هذا هو حلمى !

أرعدتنى كلماته . تحولت إليه مذهولاً ، ووجدتنى أسأله متشككاً :

- (من أنت ؟! .. ماذا تقول ؟!) .

سارع الضابط يقول : ها أنت ترى .. إنه يدعى البلاهة .. ثم انظر .. هاهو يضيف إلى موقفه سوءاً .. إنه يوزع هذه البطاقات !!

ونثرالضابط فوق المكتب عدداً من البطاقات الملونة التى رأيتها تغطى أرض الميدان . تقدم إلى راكب الدراجة ، وصفعه على قفاه ، وهو يصيح به :

- (ما هذا يا ابن الكلب ؟ .. اركبوا دراجاتكم ! .. اركبوا دراجاتكم!.. ماذا تريد من هذا ؟ .. منشور سياسى ؟!) .

وقهقه بشدة .

وكنت لا أزال أسير تشككي وذهولي ، أحاول أن أقرأ في وجه المغنى اى صلة له بصفحات أسرارى . لقد أطل على جزء من التفاصيل .. فهل يعرفها كلها ؟ . وكان لابد أن أسأله مشدداً : هل تعرفنى ؟ .. قل .. هل تعرفنى ؟!.

ولمحت - بعد أن سألته - أطراف الخوف تعبث فى قلبى .

رد قائلاً : ألم تأت معى ؟ .. إنك نصيرى !

فتأكدت من خوفي ، ومن رغبة واضحة فى الندم على تسرعى بالمشاركة منذ البداية . وكأن الضابط أدرك اضطرابى الداخلى ، أو رآه منعكساً فى وجهى ، فاقترح يساعدنى : لك أن تنصرف يا سيدى .. اتركه لنا .. !!

وبدون أن أرد ، انسحبت خارجاً محاذراً أن تلتقى عيناى بعينى المغنى .

أصابنى إحساس بالاجهاد ، فكانت خطواتى أبطأ من المعتاد ، وكأن أثقالاً تتدلى من أطرافى ورقبتى وكتفىّ .كان العالم بائساً ، ولدىّ استعداد هائل للتخاذل والبكاء . وتأكدت من أننى تخليت عن قهوة الجمعة ، ورفضت البحث عن فاكهة زوجتى . وطاشت خطواتى فلم أعرف أى وسائل المواصلات أختار لتنقلنى إلى فراشى . لسعت البرودة وجهى وكفىّ، فلجأت إلى جيبىّ معطفى المتسعين . وجدت أصابعى ضيقاً فى الجيبين .كانا خاويين . قبضت على ما بالجيبين . أخرجت قبضتاى أوراقاً ملونة .

الفهرس

المؤلف

رجب سعد السيد

عضو اتحاد الكتاب

صدر له :

أولاً : كتب فى الثقافة العلمية للعامة :

١ - الحرب ضد التلوث : سلسلة (كتابك) - رقم ٧٣ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٨ .

٢ - البحر .. أسرار وكنوز : سلسلة (المكتبة الثقافية) - رقم ٣٨٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٤

٣ - الإنسان والبيئة .. صراع أو توافق ؟ (مع آخرين) - سلسلة (كتاب العربى) - رقم ٢٦ - الكويت - وزارة الإعلام - يناير ١٩٩٠

٤ - فى عالم البحار . سلسلة (تبسيط العلوم) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ .

٥ - الأرض شفاها الله . سلسلة (اقرأ) - رقم ٥٨٧ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٣ . (حصل على جائزة الدولة فى تبسيط العلوم لعام (١٩٩٥) .

٦ - مسائل بيئية .سلسلة (العلم والحياة) - رقم ٤٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٤ .

٧ - غداً .. القرن الواحد والعشرون . (ط١) : سلسلة (العلم والحياة) - رقم ٦٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٥ . (ط ٢) : مكتبة الأسرة

- مهرجان القراءة للجميع - السلسلة العلمية - ١٩٩٦ . (ط٣) : مكتبة الأسرة - سلسلة كتاب الشباب - ١٩٩٧ .

٨ - البحر .. فضاؤنا الداخلى . سلسلة إقرأ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٦

٩ - أجراس الخطر والكوارث الطبيعية . مركز الكتاب للنشر - مصر الجديدة - القاهرة - ١٩٩٧ .

١٠ - صيد البحر وطعامه . سلسلة (العلم والحياة) - رقم ١١٥ -. الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩

. ثانياً : كتب علمية متخصصة (بالانجليزية)

١ - قائمة تصنيفية لأسماك البحر المتوسط فى المياه المصرية (علوم أساسية) منشورات مركز البيانات البحرية - المعهد القومى لعلوم البحار والمصايد بالاسكندرية - ١٩٩٣ .

٢ - قائمة تصنيفية لأسماك البحر الأحمر فى المياه المصرية (علوم أساسية) منشورات مركز البيانات البحرية - المعهد القومى لعلوم البحار والمصايد بالإسكندرية - ١٩٩٤ .

ثالثاً كتب أدبية :

١ - الأشرعة الرمادية . قصص قصيرة - سلسلة (المواهب) - قطاع الآداب - المركز القومى للفنون والآداب وزارة الثقافة - القاهرة - ١٩٨٦

٢ - نقوش الدم - روايتان - سلسلة (إشراقات أدبية) - رقم (١٣) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

٣ - عملية تزوير - قصص - سلسلة (أصوات أدبية) رقم ٢٣ - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ١٩٩٣ .

٤ - عزيزى طه . رواية تسجيلية . قيد النشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥ - اركبوا دراجاتكم . قصص . مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

٦ - أحسن ١٠ قصص . (مع آخرين) - كتاب اليوم - مؤسسة أخبار اليوم - ١٩٩٧ .

رابعاً : كتب للأطفال

١ - أريد أن أطير فى الفضاء : كتب الهلال للأولاد والبنات : رقم (٩١) - دار الهلال - القاهرة - ديسمبر ١٩٩٠ .

٢ - كعكة من جليد : حكايات علمية . دار المعارف - القاهرة - ١٩٩٥ .

٣ - قصص لونها أخضر : كتاب قطر الندى (٧) - هيئة قصور الثقافة - ١٩٩٦

٤ - وليمة الصباح الباكر : كتاب قطر الندى - (١٢) - هيئة قصور الثقافة - ١٩٩٧ .

٥ - كنوز البحر : متعاقد على نشره . حكايات علمية - دار المعارف - القاهرة .

٦ - الأرنب يحصل على ترقية . قيد النشر - دار التعاون للنشر القاهرة

٧ - جدى يفتح صندوقه : قيد النشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إيلارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبي	وكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
حبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخرابة 2000	محمد الشرقاوى
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القليرى
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـــــا تناديـنـــا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادي
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
إذهب قبل أن أبكي	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية . (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة الفرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	چورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د . علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان



عزيزى رحب ، وعى سريع : صديقى ، فيما أرجو ، وعما قريب : زميلى – أنا واثق .

يا رجب . قرأت كل قصصك حرفاً بحرف بلذة كبيرة . وأسارع وأؤكد لك أن لديك موهبة صادقة ، أدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظها لك ويحفظك لها ، جعلتني – بالمقارنة – أستهزئ بكل ما كتبته في صباي . إنني لا أخشى عليك من الغرور ، لأني أكلمك من قلبي المفتوح لك كلام أب لإبنه ، كما لا أخشى تألمك إذا قلت لك إنك تمر الآن بأدق مرحلة في حياتك ، لأن موهبتك أكبر من خبرتك .

صدقني إذا قلت لك إنني تمنيت أن أنشر لك إحدى هذه القصص في مجلة (المجلة) ، لكنها مجلة وقور ، لا تحب رائحة الجنس الصارخة . ولذلك ، سأجتهد في أن أوصي على قصتك (الصرخة) لدى مجلة (صباح الخير) التي يتنفس فيها الشباب ، وأخبرك بالنتيجة .

أحب أن تكتب لي على عنواني (٧٠ الخليفة المأمون – منشية البكري – القاهرة) ، كما أرجو أن نتلاقى قريباً .

المخلص

يحيى حقي

١٩٦٦ / ٨ / ٢٩